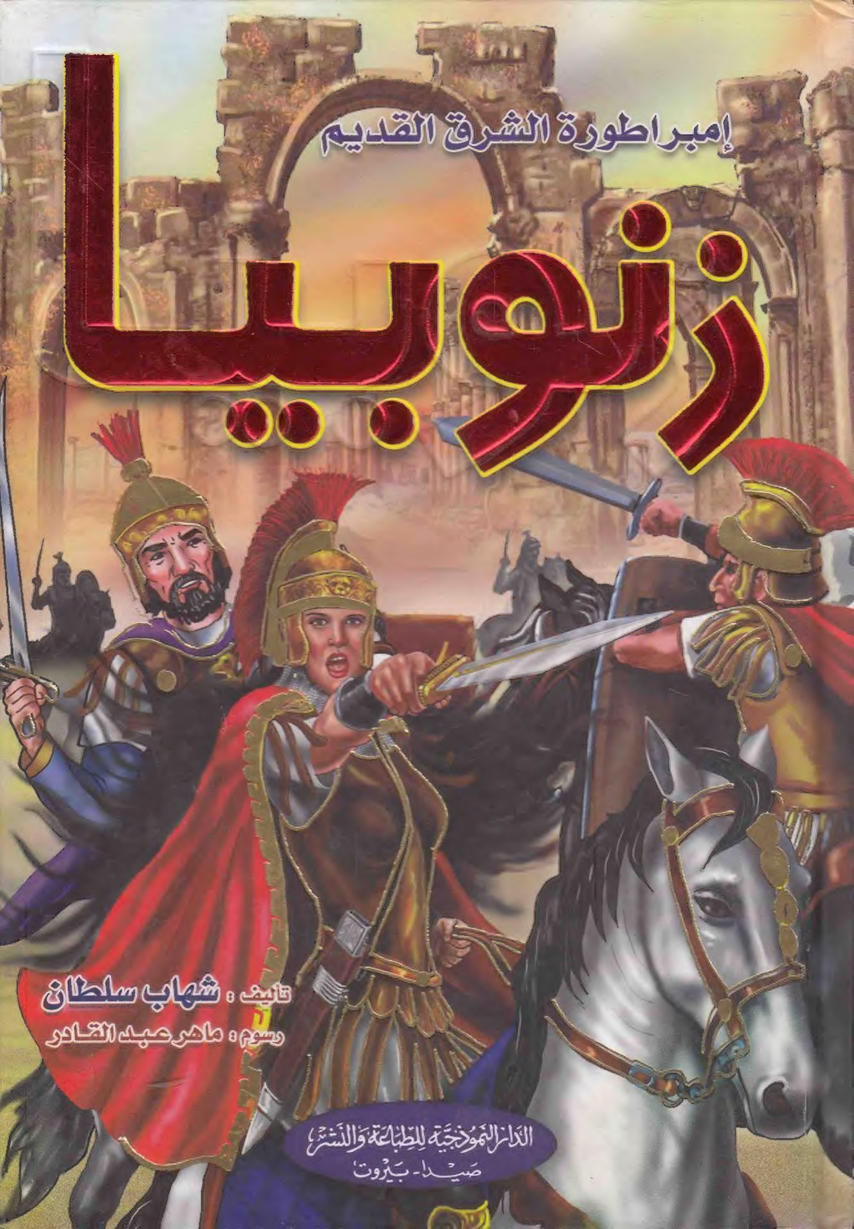

إمبراطورة الشرق القديم
زنوبيا
تاليف : شهاب سلطان
رسوم : ماهر عبد القادر
الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

شهاب سلطان

زنوبيا

إمبراطورة الشرق القديم

رسوم
ماهر عبد القادر



الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفرجرة - طريق عام صيدا - جزين
230195 07 - 230841 7 00961
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2020م - 1441هـ

E. Mail: alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ

حِينَ بَدَأْتُ الِاسْتِعْدَادَ لِلْكِتَابَةِ عَنْ زِنُوبْيَا، وَجَمْعَ الْمَعْلُومَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِهَا، وَالدَّالَّةِ عَلَى حَقِيقَتِهَا التَّارِيخِيَّةِ، فُوجِئْتُ بِشَخْصِيَّتَيْنِ قَدْ نَسَجَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ حَوْلِهِمَا أَحْدَاثًا مُتَقَارِبَةً فِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَهْدَافُهُمَا؛ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا اسْمُهَا زَيْنَبُ، وَالثَّانِيَةُ هِيَ الزَّبَّاءُ.

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ مَزِيدٍ مِنَ الْبَحْثِ وَالتَّدْقِيقِ حَتَّى أَسْتَطِيعَ التَّفْرِيقَ بَيْنَ زَيْنَبَ مَلِكَةِ تَدْمُرَ - وَهِيَ الشَّخْصِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ - وَبَيْنَ الزَّبَّاءِ.. وَهِيَ الشَّخْصِيَّةُ الْأُسْطُورِيَّةُ الَّتِي نَسَجَهَا الرُّوَاةُ فِي ظِلِّ الْمَلِكَةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَأَوْرَدُوا حَوْلَهَا أَحْدَاثًا رُبَّمَا لَمْ تَكُنْ قَدْ حَدَثَتْ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَأَحْيَانًا يَمْزِجُونَ بَيْنَهُمَا فِي الْأَحْدَاثِ.

وَكَانَ أَنْ وَفَّقَنِي اللَّهُ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الشَّخْصِيَّتَيْنِ، وَكَانَتْ أَبْعَادُ كُلِّ شَخْصِيَّةٍ كَالتَّالِي:

زِنُوبْيَا الْحَقِيقِيَّةُ	الزَّبَّاءُ الْأُسْطُورِيَّةُ
تَزَوَّجَتْ مِنْ أُذَيْنَةَ مَلِكِ تَدْمُرَ	عَزَفَتْ عَنِ الرِّجَالِ وَلَمْ تَتَزَوَّجْ
لَمْ يَكُنْ أَبُوهَا مَلِكًا	كَانَ أَبُوهَا مَلِكًا
لَيْسَ لَهَا أُخْتٌ	لَهَا أُخْتٌ اسْمُهَا زَيْنَبُ
تَتَكَلَّمُ عَدَدًا مِنَ اللُّغَاتِ	لَا تَتَكَلَّمُ سِوَى الْعَرَبِيَّةِ
حَارَبَتِ الْفُرْسَ وَالرُّومَ	لَمْ تُحَارِبْ



عَدُوُّهَا جَذِيمَةُ الْأَبْرَشُ　　　　عَدُوُّهَا الْأَسَاسِيُّ قَيْصَرُ الرُّومِ

كَانَتْ تَحْلُمُ بِالِانْتِقَامِ مِنْ قَاتِلِ وَالِدِهَا.　　　　كَانَتْ تَحْلُمُ بِإِمْبِرَاطُورِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ

أُسِرَتْ زِنُوبْيَا وَهِيَ فِي طَرِيقِهَا لِطَلَبِ النَّجْدَةِ مِنَ الْفُرْسِ، أَمَّا الزَّبَّاءُ فَلَمْ تَبْرَحْ عَشِيرَتَهَا.

وَأَخِيرًا..

إِلَيْكُمْ قِصَّةَ حَيَاةِ زِنُوبْيَا إِمْبِرَاطُورَةِ الشَّرْقِ الْقَدِيمِ.

شهاب سلطان

١



اصْطَفَّتْ آلَافٌ مِنَ الْكُتُبِ عَلَى أَرْفُفِ الْمَكْتَبَةِ بِجِوَارِ بَعْضِهَا، وَوَقَفَتْ فِي انْتِظَارِ مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهَا طَلَبًا لِلْمُسَاعَدَةِ، فَيُسْرِعُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ بِالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، حَامِلًا بَيْنَ دَفَّتَيْهِ مَا يُرِيدُ.

مَرَّتْ أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ لَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ إِلَى الْمَكْتَبَةِ، يَطْلُبُ شَيْئًا مِنْ كُتُبِهَا، أَوْ يَسْأَلُهَا الْمَشُورَةَ فِي أَيِّ أَمْرٍ، وَطَالَ غِيَابُ النَّاسِ عَنْهَا.. فَاسْتَدَارَتْ وَوَضَعَتْ وَجْهَهَا فِي الْجِدَارِ وَنَامَتْ، وَطَالَ نَوْمُهَا فَاسْتَرَاحَتْ مُتَّكِئَةً عَلَى بَعْضِهَا.. وَعَلَاهَا التُّرَابُ!!

وَذَاتَ يَوْمٍ دَخَلْتُ إِلَى الْمَكْتَبَةِ لِأَسْأَلَهَا عَنْ حَاجَةٍ لِي، وَقَبْلَ أَنْ أَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ، كَانَتْ قَدْ شَعَرَتْ بِقُدُومِي، وَصَحَتْ مِنْ نَوْمِهَا وَاعْتَدَلَتْ وَهِيَ تَهْتَزُّ بِعُنْفٍ؛ تَنْفُضُ عَنْ نَفْسِهَا تُرَابَ النِّسْيَانِ، وَوَقَفَتْ فِي أَمَاكِنِهَا تَنْتَظِرُ سُؤَالِي لِتُجِيبَ عَنْهُ.. لَحَظَاتٍ وَسَأَلْتُ قَائِلًا:

ـ مَنْ مِنْكُمْ يَعْرِفُ مَلِكَةَ تَدْمُرَ السُّورِيَّةِ؟

وَكَأَنِّي قُلْتُ تَعْوِيذَةً سِحْرِيَّةً، أَتَتْ بِصَوْتٍ نِسَائِيٍّ حَادٍّ وَقَوِيٍّ يَقُولُ:

ـ أَنَا الْمَلِكَةُ زَيْنَبُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ، كَبِيرِ تُجَّارِ تَدْمُرَ وَقَاضِيهِمْ، وَزَوْجَةُ الْمَلِكِ أُذَيْنَةَ مَلِكِ تَدْمُرَ.. أَمِيرِ الشَّرْقِ وَمَلِكِ مُلُوكِهِ.

وَقَبْلَ أَنْ أُفِيقَ لِأَتَبَيَّنَ مَصْدَرَ الصَّوْتِ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ بِفَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ:

ـ أَنَا أَوَّلُ مَنْ حَلَمَ بِبِنَاءِ حَضَارَةٍ عَرَبِيَّةٍ رَغْمَ أَنْفِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ.



عَلَّقَ أَحَدُ الْكُتُبِ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ كَمَا لَوْ كَانَ آتِيًا مِنْ عُمْقِ الزَّمَنِ وَقَالَ:

ـ هَذِهِ هِيَ الْمَلِكَةُ.

بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِي قَدِ ارْتَعَدْتُ مِنْ سَمَاعِ الصَّوْتِ بِشَكْلٍ مُفَاجِئٍ، إِلَّا أَنَّنِي تَمَاسَكْتُ قَلِيلًا، وَقُلْتُ مُتَلَعْثِمًا:

ـ أَعْرِفُ ذَلِكَ مَلِيكَتِي.

ثُمَّ قُلْتُ:

ـ وَأَعْرِفُ أَنَّ شَعْرَكِ كَانَ يَسْتَوِي عَلَى الْأَرْضِ حِينَ تَقِفِينَ.

رَاحَ صَوْتُ الْمَلِكَةِ يَتَلَاشَى تَدْرِيجِيًّا وَهِيَ تَقُولُ غَاضِبَةً:

ـ أَنْتُمْ هَكَذَا أَيُّهَا الرِّجَالُ؛ لَا تَهْتَمُّونَ بِالْمَرْأَةِ إِلَّا لِلْجَمَالِ الظَّاهِرِ مِنْهَا.

وَقَفْتُ خَجِلًا، أُنْصِتُ لِمَا سَتَقُولُ الْمَلِكَةُ، لَكِنَّ صَوْتَهَا لَمْ يَأْتِ ثَانِيَةً.

عُدْتُ إِلَى الْكُتُبِ أَرْجُوهَا أَنْ تَجُودَ عَلَيَّ بِمَا عِنْدَهَا مِنْ مَعْلُومَاتٍ عَنْ هَذِهِ الْمَلِكَةِ الَّتِي سَبَقَتِ التَّارِيخَ بِزَمَانٍ. فَرَاحَ بَعْضُهَا يَتَقَافَزُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْفُفِ وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ لِيَحُطَّ عَلَى سَاعِدِي.

حَمَلْتُ مَا جَاءَنِي مِنَ الْكُتُبِ، وَعُدْتُ إِلَى الطَّاوِلَةِ وَرُحْتُ أَقْرَأُ مَا فِيهَا مِنْ مَعْلُومَاتٍ عَنِ الْمَلِكَةِ زِنُوبْيَا، مَلِكَةِ تَدْمُرَ السُّورِيَّةِ، وَالَّتِي حَلَمَتْ بِتَكْوِينِ إِمْبِرَاطُورِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِزَمَانٍ.

احْتَرْتُ مَاذَا أُصَدِّقُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي أَقْرَؤُهَا.. وَمَاذَا أُكَذِّبُ، إِنَّ الصَّفَحَاتِ تَحْكِي عَنْ صِفَاتِ الْمَلِكَةِ زِنُوبْيَا مَا يُوحِي بِأَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدَةٍ، مَرَّةً عَرَبِيَّةً، وَأُخْرَى رُومَانِيَّةً، وَثَالِثَةً هِيَ حَفِيدَةُ كِلْيُوبَاتْرَا الْمِصْرِيَّةِ. وَصَفَحَاتٌ تَقُولُ إِنَّهَا تَزَوَّجَتْ وَأَنْجَبَتْ، وَأُخْرَى تَقُولُ إِنَّهَا لَمْ تَتَزَوَّجْ وَعَزَفَتْ عَنِ الرِّجَالِ؛ حَتَّى تُحَقِّقَ إِمْبِرَاطُورِيَّتَهَا الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي حَلَمَتْ بِهَا.



وَاصَلْتُ قِرَاءَتِي، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ أَعْرِفَ حَقِيقَةَ تِلْكَ الْمَلِكَةِ الْغَامِضَةِ الَّتِي ظَلَمَهَا التَّارِيخُ، وَكُلَّمَا قَرَأْتُ.. ازْدَادَتْ حَيْرَتِي؛ فَالْمَعْلُومَاتُ فِي الْكُتُبِ مُتَدَاخِلَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ، وَأَحْيَانًا مُمْتَزِجَةٌ بِبَعْضِهَا، فَلَا تَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ مِنَ الْخَيَالِ، كَمَا لَوْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ أَرَادَ أَلَّا يَعْرِفَ أَحَدٌ حَقِيقَتَهَا.

تَذَكَّرْتُ صَوْتَ الْمَلِكَةِ الَّذِي لَامَنِي وَصَحَّحَ لِي مَا أَقْرَأُ، صِحْتُ عَالِيًا أَقُولُ:

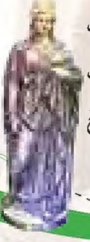
- مَلِيكَتِي.. سَاعِدِينِي، أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَكِ حَقًّا.

وَلِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ.. كَمَا لَوْ كَانَتْ كَلِمَاتِي تَعْوِيذَةً سِحْرِيَّةً. تَفَجَّرَتْ عَاصِفَةٌ مِنَ الرِّيَاحِ، رَاحَتْ تُصَفِّرُ بَيْنَ سَعَفِ أَشْجَارِ النَّخِيلِ، وَتَتَجَاذَبُ فُرُوعَ الْأَشْجَارِ حَتَّى كَادَتْ تَقْتَلِعُهَا، وَرَاحَتْ ضَلَفَاتُ النَّوَافِذِ تُقَاوِمُ الِاقْتِلَاعَ مِنْ أُطُرِهَا، وَتَصْطَدِمُ بِالْجِدَارِ مُحْدِثَةً صَوْتًا عَنِيفًا! فَقُمْتُ لِإِغْلَاقِهَا.

وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي أَطْلَلْتُ فِيهَا بِرَأْسِي خَارِجَ أَقْرَبِ النَّوَافِذِ لِي، وَمَدَدْتُ ذِرَاعَيَّ عَلَى الْجَانِبَيْنِ لِأُمْسِكَ بِهِمَا ضَلْفَتَيِ الشُّبَّاكِ، صَنَعَتِ الْعَاصِفَةُ دَوَّامَةً حَلَزُونِيَّةً اتَّجَهَتْ نَاحِيَتِي فِي سُرْعَةٍ وَحَمَلَتْنِي، وَأَسْرَعَتْ تَخْتَرِقُ بِيَ الْفَضَاءَ!!

مَرَّتْ بِيَ الْعَاصِفَةُ فَوْقَ مَدَائِنَ اصْطَكَّتْ ضَلَفَاتُهَا الْخَشَبِيَّةُ وَأَبْوَابُهَا الْحَدِيدِيَّةُ بِبَعْضِهَا، فَأَحْدَثَتْ دَوِيًّا أَزْعَجَ الْآذَانَ، وَمَرَّتْ عَلَى حُقُولٍ وَحَدَائِقَ تَمَسَّكَتْ أَشْجَارُهَا فِي الْأَرْضِ بِجُذُورِهَا تُقَاوِمُ الِاقْتِلَاعَ فَلَمْ تُغَادِرْ مَكَانَهَا، لَكِنَّ الْأَعْشَابَ الضَّعِيفَةَ ذَاتَ الْجُذُورِ الْقَصِيرَةِ، لَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْمُقَاوَمَةِ، فَغَادَرَتِ الْأَرْضَ وَاضْطُرَّتْ لِلدَّوَرَانِ فِي فَلَكِ الْعَاصِفَةِ.

وَحِينَ صَارَتِ الْعَاصِفَةُ فَوْقَ الصَّحْرَاءِ، جَذَبَتْ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ كَوْمَاتِ الْأَعْشَابِ الْجَافَّةِ وَالْكَثِيرَ مِنَ الرِّمَالِ النَّاعِمَةِ مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الْأَرْضِ وَصَعِدَتْ بِهَا وَتَرَكَتْهَا تَدُورُ حَوْلِي حَتَّى صِرْتُ كَأَنِّي فِي خَيْمَةٍ صَفْرَاءَ دَاكِنَةِ اللَّوْنِ، أَسْمَعُ



صَفِيرَ الرِّيَاحِ، وَحَفِيفَ الْأَعْشَابِ فِي خَارِجِهَا وَلَا أَرَى شَيْئًا.

لَمْ أَعْرِفْ كَـــمْ مَضَى عَلَيَّ مِنَ الْوَقْتِ وَأَنَا دَاخِلَ خَيْمَتِي الرَّمْلِيَّةِ الطَّائِرَةِ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِشَـــيْءٍ إِلَّا وَالْعَاصِفَةُ تَهْدَأُ تَدْرِيجِيًّا، وَتَتَسَاقَطُ ذَرَّاتُ الرِّمَالِ النَّاعِمَةِ إِلَى الْأَرْضِ، حَتَّى اخْتَفَتْ خَيْمَتِي الرَّمْلِيَّةُ الطَّائِرَةُ، وَتَدَحْرَجَتِ الْأَعْشَـــابُ مُبْتَعِدَةً، وَصَارَ الْجَوُّ صَافِيًا، وَاسْتَقَرَّتْ قَدَمَايَ فَوْقَ قِمَّةِ جَبَلٍ عَالٍ.

وَقَفْتُ أَنْظُرُ حَوْلِي فَلَمْ أَرَ غَيْرَ قِمَمِ أَشْجَارٍ نَابِتَةٍ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ، تَتَطَلَّعُ قِمَمُهَا نَحْوَ السَّـــمَاءِ. وَاكْتَشَـــفْتُ أَنَّ الْجَبَلَ الَّذِي أَقِفُ عَلَيْهِ، لَيْسَ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ سِلْسِلَةٍ جَبَلِيَّةٍ مُتَّصِلَةٍ، مُمْتَدَّةٍ حَتَّى أَطْبَقَ عَلَيْهَا مُنْحَنَى السَّمَاءِ، وَلَمْ أَعْرِفْ أَيْنَ تَنْتَهِي.

تَرَكْتُ نَفْسِيَ الْمُضْطَرِبَةَ تَسْـــتَمْتِعُ بِالنَّظَرِ إِلَى خُضْرَةِ الْأَشْجَارِ الَّتِي تَكْسُو الْجِبَالَ، وَأَشْـــجَارِ النَّخِيلِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ الْمُمْتَدَّةِ حَتَّى الْأُفُقِ فِي كُلِّ الْجِهَاتِ، وَتَسْتَمْتِعُ بِشَقْشَقَاتِ الْعَصَافِيرِ وَغِنَاءِ الطُّيُورِ وَهِيَ تَلْهُو بَيْنَ فُرُوعِ الْأَشْجَارِ.

كَانَ الْمَنْظَرُ بَدِيعًا، وَغِنَاءُ الطُّيُورِ مِنْ حَوْلِي يَفُوقُ فِي عُذُوبَتِهِ كُلَّ مَا سَـــمِعْتُ مِنْ مَقْطُوعَاتٍ مُوسِيقِيَّةٍ أَتَتْ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ، فَهَدَأَتْ نَفْسِي وَزَالَ عَنْهَا تَوَتُّرُهَا وَاضْطِرَابُهَا، وَاسْتَطَاعَ عَقْلِي أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا تَرَاهُ الْعَيْنَانِ.

كَانَتْ هُنَاكَ سِلْسِلَتَانِ مِنَ الْجِبَالِ غَيْرَ الَّتِي أَقِفُ عَلَيْهَا، تَكْسُوهَا الْغَابَاتُ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي حَتَّى قِمَمِ الْجِبَالِ، وَهُنَاكَ خُطُـــوطٌ فِضِّيَّةٌ مُتَعَرِّجَةٌ تَرْبِطُ بَيْنَ قِمَمِ الْجِبَالِ وَوُدْيَانِهَا.. حِينَ دَقَّقْتُ النَّظَرَ فِيهَا، تَأَكَّدْتُ أَنَّهَا أَنْهَارٌ يَتَدَفَّقُ مَاؤُهَا نَحْوَ الْوَادِي.

سَارَتْ عَيْنَايَ مَعَ الْمَاءِ، هَبَطْتُ إِلَى أَرْضِ الْوَادِي، فَاصْطَدَمْتُ بِأَسْطُحٍ كَثِيرَةٍ عَالِيَةٍ، يُحِيطُ بِهَا سُـــورٌ عَالٍ وَعَرِيضٌ، تَرَكْتُهَا وَرُحْـــتُ إِلَى أَبْعَدَ مِنْهَا، فَكَانَتِ الْأَرْضُ السَّـــهْلَةُ الْمُسْـــتَوِيَةُ، وَكَانَتِ الْوَاحَاتُ الْخَضْرَاءُ وَجَدَاوِلُ الْمَاءِ تَرْوِي الْأَشْجَارَ، وَكَانَتِ الْحَدَائِقُ وَالْبُيُوتُ.



بِحِرْصٍ شَدِيدٍ بَدَأْتُ أَهْبِطُ مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ، وَكُلَّمَا اقْتَرَبْتُ مِنْ أَرْضِ الْوَادِي بَانَتِ الْبِنَايَاتُ أَمَامَ عَيْنِي شَامِخَةً بِوَاجِهَاتِهَا الْمَرْمَرِيَّةِ؛ فَهَذَا مَعْبَدٌ، وَهَذَا قَصْرٌ كَبِيرٌ، وَهَذِهِ سَاحَةُ مَسْرَحٍ أَمَامَهُ مُدَرَّجَاتٌ حَجَرِيَّةٌ، وَهَذِهِ أَسْوَاقٌ وَاسِعَةٌ، تَزْدَحِمُ بِالْحَمِيرِ وَالْجِمَالِ الْمُحَمَّلَةِ بِالْأَثْقَالِ، وَالَّتِي تُزَاحِمُ الْعَرَبَاتِ الْمُحَمَّلَةَ بِالصَّنَادِيقِ الدَّاخِلَةَ إِلَى السُّوقِ وَالْخَارِجَةَ مِنْهَا.

تَوَقَّفْتُ قَلِيلًا، رُحْتُ أُعِيدُ النَّظَرَ فِيمَا رَأَيْتُ.. وَاحَاتٌ خَضْرَاءُ يَانِعَةٌ وَسَطَ الصَّحْرَاءِ، وَأَسْوَارٌ عَالِيَةٌ عَرِيضَةٌ تُحِيطُ بِمَدِينَةٍ كُلُّ مَا فِيهَا لَهُ شَكْلُ الْعِمَارَةِ الرُّومَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، فَكَيْفَ حَدَثَ هَذَا وَسَطَ كُلِّ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ الْقَاحِلَةِ؟!

وَاصَلْتُ هُبُوطِيَ الْحَذِرَ إِلَى أَسْفَلَ، وَقَادَتْنِي طُرُقُ الْجَبَلِ الْمُتَعَرِّجَةُ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ، وَجَدْتُ لَهَا سُورًا مِنَ الْحَجَرِ الْمَنْحُوتِ، عَرِيضًا وَعَالِيًا لِحِمَايَتِهَا، دُرْتُ حَوْلَهُ أَبْحَثُ عَنْ بَابٍ أَنْفُذُ مِنْهُ إِلَى الدَّاخِلِ، وَأَنَا أَتَفَقَّدُهُ، كَانَ بِنَاءً أَصَمَّ لَا أَثَرَ لِلْحَيَاةِ فِيهِ، لَكِنَّ قَلْبَهُ كَانَ بِهِ حُجُرَاتٌ يَسْكُنُهَا جُنُودٌ، هَذَا غَيْرَ أَبْرَاجٍ صَغِيرَةٍ يَقِفُ فِيهَا رِجَالٌ يَحْمِلُ كُلٌّ مِنْهُمْ قَوْسَهُ وَحِرَابَهُ وَسِهَامَهُ.

اقْتَرَبْتُ مِنْ مُعَسْكَرٍ لِلْجُنُودِ خَارِجَ السُّورِ، يَبْدُو مِنْ مَلَابِسِهِمْ أَنَّهُمْ مِنَ الرُّومَانِ، تَعَجَّبْتُ لِوُجُودِهِمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُنْعَزِلِ وَسَطَ الصَّحْرَاءِ، وَالَّذِي كُلُّ أُنَاسِهِ يَرْتَدُونَ اللِّبَاسَ الْبَدَوِيَّ، لَمْ أَقْتَرِبْ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ طَرِيقِي أَحَدٌ.

وَاصَلْتُ تَقَدُّمِي حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنْ بَوَّابَةٍ ضَخْمَةٍ، مُكَوَّنَةٍ مِنْ عِدَّةِ أَقْوَاسٍ مِنَ الرُّخَامِ، وَهُنَاكَ أُنَاسٌ وَدَوَابُّ يَدْخُلُونَ مِنْهُ وَيَخْرُجُونَ، فَدَخَلْتُ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَلَمْ يَسْأَلْنِي أَحَدٌ مَنْ أَنَا، وَلَمْ يَهْتَمَّ أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَلَا مَاذَا أُرِيدُ، فَسِرْتُ بَيْنَ النَّاسِ بِحُرِّيَّةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ.

كَـــمْ مِنْ مَرَّةٍ كِدْتُ أَنْ أَصْطَدِمَ بِجَمَلٍ مُحَمَّلٍ بِصَنَادِيقَ مُعَلَّقَةٍ عَلَى جَانِبَيْهِ، وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ أَزَاحَنِي حِمَارٌ بِرَأْسِهِ مِنْ طَرِيقِهِ، وَهُوَ يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ زَكِيبَةً تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْبُهَارَاتِ، وَكَمْ قَفَزْتُ مِنْ أَمَامِ عَرَبَاتٍ تَجُرُّهَا الْخُيُولُ مُحَمَّلَةٍ بِصَنَادِيقِ قَنَانِيِّ الْخُمُورِ وَزَيْتِ الزَّيْتُونِ الْأَصْفَرِ الذَّهَبِيِّ، وَكَمْ مِنْ حَادٍ مَرَّ بِي وَهُوَ يَسُوقُ عَشَرَاتٍ مِنَ النُّوقِ الْبَيْضَاءِ ذَاتِ الْقَوَائِمِ الطَّوِيلَةِ، وَالَّتِي تُسْرِعُ فِي سَيْرِهَا إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ.

تَجَرَّأْتُ وَسَأَلْتُ رَجُلًا قَابَلَنِي وَقُلْتُ لَهُ:

ـ مَا اسْمُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ؟

قَالَ بِفَخْرٍ:

ـ هَذِهِ تَدْمُرُ يَا وَلَدِي، عَرُوسُ الْبَادِيَةِ، وَمَرْكَزُ التِّجَارَةِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ.



٢



كَانَتْ تَدْمُرُ بِالْفِعْلِ عَرُوسَ الْبَادِيَةِ كَمَا أَسْمَاهَا الرَّجُلُ؛ بُيُوتٌ فَخْمَةٌ وَقُصُورٌ ذَاتُ أَعْمِدَةٍ شَامِخَةٍ عَلَى الْجَانِبَيْنِ، ذَاتُ جُدْرَانٍ زُيِّنَتْ بِنَحْتٍ لِزَخَارِفَ نَبَاتِيَّةٍ وَتَمَاثِيلَ بَشَرِيَّةٍ.

وَقَفْتُ أَتَأَمَّلُ تِمْثَالَيْنِ لِرَجُلَيْنِ مَنْحُوتَيْنِ مِنَ الْحَجَرِ فِي وَاجِهَةِ وَاحِدٍ مِنَ الْقُصُورِ، خُيِّلَ لِي أَنَّنِي أَرَى الدَّمَ فِي عُرُوقِهِمَا بِالرَّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِي بِأَنَّهُمَا مِنَ الْحَجَرِ، قُلْتُ مُنْدَهِشًا:

ـ كَيْفَ لِهَذِهِ الْوَاحَةِ الْمُنْعَزِلَةِ أَنْ تَكُونَ بِهَذِهِ الْعَظَمَةِ وَهَذَا الثَّرَاءِ؟!

سَمِعَنِي هَذِهِ الْمَرَّةَ رَجُلٌ مَارٌّ، فَتَوَقَّفَ وَقَالَ لِي:

ـ تَبْدُو غَرِيبًا يَا وَلَدِي.

قُلْتُ لَهُ:

ـ جِئْتُ الْآنَ فَقَطْ.

رَحَّبَ بِيَ الرَّجُلُ وَقَالَ:

ـ أَهْلًا بِكَ وَمَرْحَبًا.

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ وَقَالَ:

ـ سَمِعْتُكَ تَقُولُ لِنَفْسِكَ: كَيْفَ صَارَتِ الْوَاحَةُ بِهَذِهِ الْعَظَمَةِ وَهَذَا الثَّرَاءِ؟!



رَدَدْتُ عَلَى الرَّجُلِ وَقُلْتُ مُتَسَائِلًا:

ـ كَيْفَ بَنَيْتُمْ كُلَّ هَذَا الْعُمْرَانِ، وَأَنْتُمْ مُنْعَزِلُونَ هَكَذَا وَسَـــطَ الصَّحْرَاءِ؟! وَمَنِ الَّذِي نَحَتَ كُلَّ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ، وَكُلَّ هَذِهِ النُّقُوشِ عَلَى الْجُدْرَانِ؟! أَنَا فِي حَيْرَةٍ!!

قَالَ الرَّجُلُ مُبْتَسِمًا:

ـ أَنْتَ فِي مَمْلَكَةِ تَدْمُرَ يَا وَلَدِي.

ابْتَسَمْتُ لِابْتِسَامَةِ الرَّجُلِ، فَقَالَ:

ـ وَالَّذِي صَنَعَ كُلَّ الَّذِي تَرَاهُ هُمْ عُمَّالٌ رُومَانِيُّونَ وَبَعْضٌ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ.

عُدْتُ لِسُؤَالِهِ ثَانِيَةً وَقُلْتُ:

ـ وَهَلْ جَاءَ الْمِصْرِيُّونَ إِلَى هُنَا؟ وَمَا دَخْلُ الرُّومَانِ بِهَذَا الْمَكَانِ؟

قَالَ شَارِحًا:

ـ يَا وَلَدِي، الْمِصْرِيُّونَ هُنَا مِنْ قَدِيـــمٍ، وَأَهْلًا بِهِمْ وَمَرْحَبًا، وَهُمُ الَّذِينَ عَلَّمُونَا كَيْفَ نَبْنِي مَقَابِرَنَا، أَمَّا الرُّومَانُ فَهُمْ مُحْتَلُّونَ لِأَرْضِ سُورِيَا كُلِّهَا مِنَ الْبَحْرِ الْوَاسِعِ حَتَّى الضِّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ لِلْفُرَاتِ، وَبِالطَّبْعِ مِنْ بَيْنِهَا إِمَارَتُنَا، لَكِنَّ سَيِّدَنَا الْعَظِيمَ «أُذَيْنَةَ بْنَ السَّـــمَيْدَعِ» اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْعَلَ إِمْبِرَاطُورَ رُومَا يُوَافِقُ عَلَى أَنْ تَكُونَ إِمَارَتُنَا إِمَارَةً مُسْتَقِلَّةً يَحْكُمُهَا أَهْلُهَا، ثُمَّ أَعْلَنَ تَدْمُرَ مَمْلَكَةً مُسْتَقِلَّةً، وَبَايَعَهُ النَّاسُ مَلِكًا عَلَيْهَا.

قُلْتُ:

ـ وَلِمَاذَا يُوجَدُ مُعَسْكَرٌ لِلْجُنُودِ الرُّومَانِ خَارِجَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ؟!

ضَحِكَ الرَّجُلُ وَقَالَ:

ـ لَا.. لَا.. هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ دَخْلٌ بِمَا يَحْدُثُ دَاخِلَ أَسْوَارِنَا.

قُلْتُ:

ـ وَلِمَاذَا وُجُودُهُمْ إِذَنْ؟!

أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ:

ـ هُـــمْ لِحِمَايَةِ ظَهْرِ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ مِنْ جَيْشِ الْفُرْسِ، أَلَا تَعْرِفُ أَنَّ الْفُرْسَ يَحْتَلُّونَ الْعِرَاقَ حَتَّى الْجَانِبَ الشَّرْقِيَّ لِلْفُرَاتِ؟!

قُلْتُ مُوَافِقًا:

ـ نَعَمْ سَيِّدِي، أَعْرِفُ ذَلِكَ.

عَلَّقَ الرَّجُلُ وَقَالَ مُذَكِّرًا:

ـ يَا وَلَدِي، تَدْمُرُ الْآنَ مَمْلَكَةٌ يَحْكُمُهَا مَلِكٌ مِنَّا، وَلَا دَخْلَ لِلرُّومَانِ بِنَا.

سَأَلْتُ قَائِلًا:

ـ وَمَاذَا قَدَّمْتُمْ لَهُ مُقَابِلَ ذَلِكَ؟

قَالَ:

ـ لَا شَـــيْءَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ نُمِدَّ جَيْشَهُمْ بِالْمُقَاتِلِينَ، وَنَدْفَعَ لَهُمْ حِصَّةً مِمَّا نَكْسِبُ مِنَ التِّجَارَةِ، وَنُسَمِّيَ أَبْنَاءَنَا بِأَسْمَاءٍ رُومَانِيَّةٍ.

صَمَتَ الرَّجُلُ قَلِيلًا، ثُمَّ اسْتَطْرَدَ وَقَالَ:

ـ سَتَجِدُ النَّاسَ هُنَا لَهُمْ أَسْمَاءٌ وَأَلْقَابٌ رُومَانِيَّةٌ، وَلَهُمْ أَيْضًا أَسْمَاءٌ عَرَبِيَّةٌ.

ثُمَّ قَالَ حَالِمًا:

ـ لَكِنِ الْآنَ، كُلُّ شَيْءٍ سَيَتَغَيَّرُ بَعْدَ أَنْ صِرْنَا مَمْلَكَةً مُسْتَقِلَّةً.

رَبَّتَ عَلَى ظَهْرِي وَهُوَ يَقُولُ نَاصِحًا:

ـ تَعَالَ مَعِي وَسَتَرَى الْكَثِيرَ مِمَّا قُلْتُ لَكَ.

سَأَلْتُ الرَّجُلَ وَقُلْتُ لَهُ:

ـ إِلَى أَيْنَ؟

رَدَّ قَائِلًا:

ـ إِلَى مَعْبَدِ الْإِلَهِ (بل) فِي نِهَايَةِ هَذَا الشَّارِعِ!

قُلْتُ مُتَعَجِّبًا:

ـ أَلَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ؟! أَلَمْ تُؤْمِنُوا بِالْمَسِيحِ الَّذِي مَضَى عَلَى مِيلَادِهِ أَكْثَرُ مِنْ قَرْنَيْنِ وَنِصْفٍ مِنَ الزَّمَانِ؟! وَأَيْنَ دِينُ مُوسَى كَلِيمِ اللهِ وَالَّذِي كَانَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْمَسِيحُ؟!

رَدَّ الرَّجُلُ فِي هُدُوءٍ وَقَالَ:

ـ يَا وَلَدِي، لَدَيْنَا آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ، يَصِلُ عَدَدُهَا إِلَى الْمِائَةِ إِلَهٍ!! وَأَيُّ فَرْدٍ هُنَا لَهُ الْحَقُّ فِي أَنْ يَعْبُدَ مَا يَشَاءُ!!

صَمَتَ الرَّجُلُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ مُتَسَائِلًا:

ـ هَلْ سَتَأْتِي مَعِي الْآنَ أَمْ سَتَذْهَبُ إِلَى السُّوقِ أَوَّلًا؟

جَاءَتْ كَلِمَاتُ الرَّجُلِ إِنْقَاذًا لِي مِنَ الذَّهَابِ إِلَى مَعْبَدٍ يَعْبُدُ النَّاسُ فِيهِ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تَعَلَّقْتُ بِهَا، وَقُلْتُ:

ـ سَأَذْهَبُ إِلَى السُّوقِ.

أَدْرَكَ الرَّجُلُ أَنَّنِي لَا أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَعْبَدِ، تَرَكَنِي وَأَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

ـ سَتَجِدُ السُّوقَ أَمَامَكَ فِي الطَّرِيقِ. سَتَجِدُ لَهُ سُورًا مِنَ الْحَجَرِ وَالطِّينِ يُحِيطُ بِهِ. سَتَعْرِفُهُ مِنْ حَرَكَةِ دُخُولِ الْبِضَاعَةِ إِلَيْهِ وَخُرُوجِهَا مِنْهُ.

غَادَرَنِي الرَّجُلُ وَتَرَكَ عَقْلِي يُفَكِّرُ فِي هَؤُلَاءِ الْبَدْوِ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا أَنْ تَكُونَ لَهُمْ إِمَارَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي وُجُودِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ، وَهُمَا قُوَّتَانِ عَظِيمَتَانِ تَتَصَارَعَانِ عَلَى احْتِلَالِ كُلِّ الْأَرْضِ وَاسْتِعْبَادِ أَهْلِهَا؛ لِيَتَّخِذُوا مِنْهُمْ جُنُودًا يُحَارِبُونَ بَدَلًا مِنْ جُنُودِهِمْ.

وَكَيْفَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَبِّ مُوسَى وَعِيسَى، وَظَلُّوا عَلَى شِرْكِهِمْ يُقَدِّسُونَ النَّارَ وَيَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنَ الْأَحْجَارِ، بِالرَّغْمِ مِنْ مُرُورِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ وَخَمْسِينَ سَنَةً عَلَى مِيلَادِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ؟! وَحِينَ لَمْ أَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَى إِجَابَةٍ تُرْضِينِي كَفَفْتُ عَنِ التَّفْكِيرِ، حَتَّى أَعُودَ إِلَى كُتُبِي أَسْأَلُهَا أَنْ تَجُودَ عَلَيَّ بِمَا عِنْدَهَا، رُبَّمَا عَرَفْتُ الْإِجَابَةَ. وَأَخَذْتُ طَرِيقِي نَحْوَ السُّوقِ.

لَمْ أَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ الرَّغْبَةِ فِي الْمَعْرِفَةِ، وَأَخَذَنِي الْفُضُولُ لِرُؤْيَةِ مَعْبَدِ الْإِلَهِ (بــل) الَّذِي تَرَكَنِي الرَّجُلُ مِنْ أَجْلِهِ، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ لِرُؤْيَتِهِ، فَمَا يُضِيرُنِي أَنْ أَرَى مَنْ يَسْجُدُ لِلشَّمْسِ مَا دُمْتُ أَسْجُدُ أَنَا لِلَّهِ وَحْدَهُ؟! وَقَرَّرْتُ أَيْضًا أَلَّا أَسْأَلَ أَحَدًا عَنْهُ، بِالتَّأْكِيدِ سَأَعْرِفُهُ، لَقَدْ أَخْبَرَنِي الرَّجُلُ بِأَنَّهُ فِي نِهَايَةِ الشَّارِعِ الَّذِي أَسِيرُ فِيهِ، وَوَاصَلْتُ سَيْرِي.

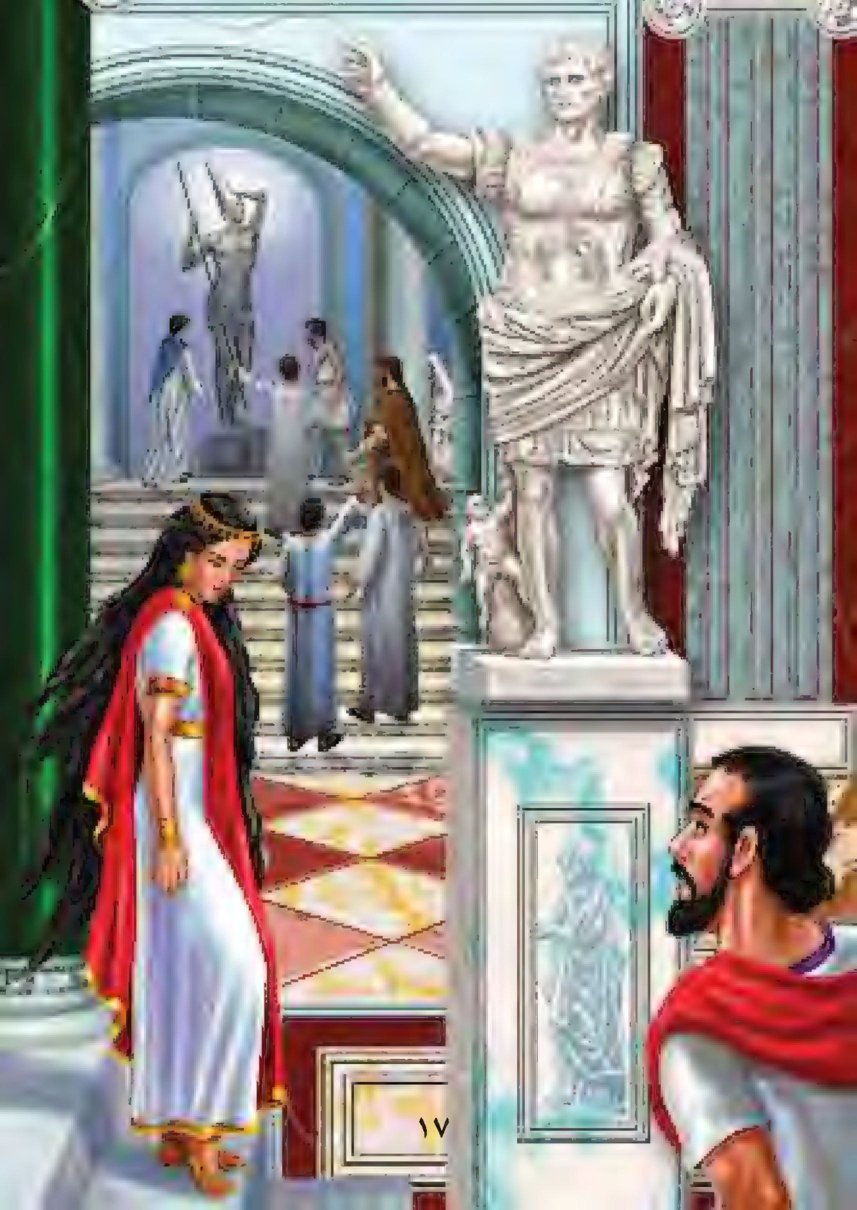
حِينَ اقْتَرَبْتُ مِنْ نِهَايَةِ الشَّارِعِ، لَاحَتْ وَاجِهَةُ الْمَعْبَدِ أَمَامَ عَيْنِي، أَسْرَعْتُ حَتَّى وَقَفْتُ فِي الْبَهْوِ كَالْقَزَمِ بَيْنَ ثَمَانِيَةِ أَعْمِدَةٍ عَالِيَةٍ تَحْمِلُ قَوْسًا كَبِيرًا، تَخَطَّيْتُ الْبَهْوَ وَصَعِدْتُ عِدَّةَ دَرَجَاتٍ مِنَ الرُّخَامِ الْمَرْمَرِيِّ لِأَجِدَ بُرْجَيْنِ عَالِيَيْنِ عَلَى جَانِبَي بَوَّابَاتٍ ثَلَاثٍ مُتَدَاخِلَةٍ، ذَاتِ حِلْيَاتٍ ذَهَبِيَّةٍ وَبُرُونْزِيَّةٍ، دَلَفْتُ مِنْهَا إِلَى السَّاحَةِ وَهُنَاكَ وَقَفْتُ جَانِبًا.

بِجوَارِ ثَلَاثَةٍ مِنْ جُدْرَانِ الْمَعْبَدِ مِنَ الدَّاخِلِ أَرْوِقَةٌ تَلْتَصِقُ بِها، ثَلَاثَةٌ مِنْهَا لَهَا صَفَّانِ مِنَ الْأَعْمِدَةِ، أَمَّا الرُّوَاقُ الرَّابِعُ فَلَهُ صَفٌّ وَاحِدٌ، وَكُلُّهَا مَسْقُوفَةٌ بِالْخَشَبِ الْمُزَيَّـــنِ بِنُقُوشٍ نَبَاتِيَّةٍ، يَجْلِسُ فِي ظِلِّهَا أُنَاسٌ كَثِيرُونَ، مَنْ يَتَنَاقَشُـــونَ، وَمَنْ يَتَأَمَّلُونَ، وَمَنْ يَسْـــتَرِيحُونَ. هَذَا غَيْرُ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ مِنَ الْهَيْكَلِ الْمُسْتَطِيلِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ السَّاحَةَ.

مِـــنْ مَكَانِي صَعِدَتْ عَيْنَايَ دَرَجَاتِ الْهَيْـــكَلِ، وَتَلَصَّصَتْ عَبْرَ الْبَابِ، فَرَأَتِ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَعْمِدَةِ لَهَا تِيجَـــانٌ مُزَيَّنَةٌ بِالذَّهَبِ وَالْبُرُونْزِ، كُلٌّ مِنْهَا يَحْمِلُ تِمْثَالًا لِإِنْسَانٍ مُجَنَّحٍ يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَكَالِيلَ مِنَ الثِّمَارِ وَالْفَاكِهَةِ.

عَادَتْ عَيْنَايَ الْمُتَلَصِّصَتَانِ مَعَ فَتَاةٍ قَادِمَةٍ مِنَ الْهَيْكَلِ، شَعْرُهَا غَزِيرٌ طَوِيلٌ يَتَرَاقَصُ فِي الْهَوَاءِ خَلْفَ ظَهْرِهَا، وَلَوْلَا سُـــرْعَةُ خُطُوَاتِهَا، لَكَانَ قَدْ زَحَفَ عَلَى الْأَرْضِ خَلْفَهَا، تَفَحَّصَتْنِي بِنَظْرَةٍ سَـــرِيعَةٍ مِنْ عَيْنَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ لَامِعَتَيْنِ وَهِيَ تَمُرُّ بِجَانِبِي، وَابْتَسَمَتْ عَنْ أَسْـــنَانٍ بَيْضَاءَ تَشِعُّ بَرِيقًا كَاللُّؤْلُؤِ، تَابَعْتُهَا وَهِيَ تُسْـــرِعُ خَارِجَةً مِنَ الْبَوَّابَاتِ الثَّلَاثِ إِلَى بَهْوِ الْأَعْمِدَةِ، وَحِينَ اخْتَفَتْ، سَـــمِعْتُ صَهِيلَ حِصَانٍ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَنْطَلِقُ بِهَا يَخْتَرِقُ زِحَامَ الشَّارِعِ الَّذِي جِئْتُ مِنْهُ.

لَمْ أَجِدْ فِي نَفْسِي الرَّغْبَةَ فِي الْبَقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَعْبَدِ الْإِلَهِ (بل)، اسْتَدَرْتُ خَارِجًا، وَعُدْتُ إِلَى الشَّارِعِ حَيْثُ أَتَيْتُ؛ أَنْوِي الذَّهَابَ هَذِهِ الْمَرَّةَ.. إِلَى السُّوقِ.



٣



وَاصَلْتُ سَيْرِي.. رُحْتُ أَبْحَثُ عَنِ السُّورِ الَّذِي مِنَ الْحَجَرِ وَالطِّينِ حَتَّى وَجَدْتُهُ، دَفَعْتُ بِنَفْسِي وَسَـــطَ الْعَرَبَاتِ وَالْجِمَالِ وَالْحَمِيرِ الْمُحَمَّلَةِ بِالْبَضَائِعِ وَالدَّاخِلَةِ إِلَى السُّوقِ وَالْخَارِجَةِ مِنْهُ.

رَأَيْتُ قَافِلَةً كَبِيرَةً دَاخِلَةً إِلَى السُّوقِ، يَتَقَدَّمُهَا قَائِدُهَا عَلَى نَاقَةٍ قَوِيَّةٍ فِي الْأَمَامِ، وَمِنْ خَلْفِهِ الْعَدِيدُ مِنَ الْعَرَبَـــاتِ الَّتِي تَجُرُّهَا الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ، وَمِنْ بَعْدِهَا دَخَلَ مِائَتَانِ مِنَ النُّوقِ الْبَيْضَاءِ ذَاتِ الْقَوَائِمِ الطَّوِيلَـــةِ، يَقُودُهَا الْحَدَّاءُونَ، ثُمَّ أَلْفٌ مِـــنَ الْحَمِيرِ يُوَجِّهُهَا الْحَمَّارُونَ، وَمِنْ بَعْدِ كُلِّ ذَلِـــكَ، دَخَلَ الْحُرَّاسُ مِنْ رُمَاةِ الرِّمَاحِ وَالنِّبَالِ عَلَى جِمَالِهِمْ. وَكَانَتْ دَوَابُّ الْقَافِلَةِ تَحْمِلُ صَنَادِيقَ تَحْوِي أَثْوَابًا مِنَ الْأَنْسِـــجَةِ الصُّوفِيَّةِ وَالْحَرِيرِيَّةِ، وَصَنَادِيقَ مِنَ الْأَوَانِي الزُّجَاجِيَّةِ وَقِنِّينَاتِ الْعُطُورِ وَزَيْتِ الزَّيْتُونِ، وَصَنَادِيقَ الْفَاكِهَةِ الْمُجَفَّفَةِ، وَالْجُبْنِ، وَبَرَامِيلَ خَشَبِيَّةً تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْخُمُورِ.

وَمَا إِنِ اكْتَمَلَ دُخُولُ الْقَافِلَةِ السُّـــوقَ، وَتَوَقَّفَتِ الْعَرَبَاتُ، حَتَّى أَنَاخَ الْحُدَاةُ جِمَالَهُمْ، وَوَقَفَ الْحَمَّارُونَ بِجِوَارِ حَمِيرِهِـــمْ، وَتَوَجَّهَ الْقَائِدُ إِلَى رَجُلٍ بِمَلَابِسَ رُومَانِيَّةٍ يَجْلِسُ فِي رُكْنٍ عَالٍ، تَصْعَدُ إِلَيْهِ بِعِدَّةِ دَرَجَاتٍ مِنَ الرُّخَامِ الْمَرْمَرِيِّ، وَلَهُ عَدَدٌ مِنَ الْأَعْمِدَةِ تَحْمِلُ قَوْسًا حَجَرِيًّا يُظَلِّلُهُ.

حِينَ رَأَى الْقَادِمَ إِلَيْهِ هَمَّ وَاقِفًا يُرَحِّبُ بِهِ، أَجْلَسَهُ بِجِوَارِهِ وَصَاحَ يَقُولُ آمِرًا:



- أَفْرِغُوا حُمُولَةَ الْقَافِلَةِ، وَاعْمَلُوا عَلَى رَاحَةِ الدَّوَابِّ.

انْطَلَقَ الْعُمَّالُ كَشَغَّالَاتِ خَلِيَّةِ النَّحْلِ، كُلٌّ مِنْهُمْ يَعْرِفُ دَوْرَهُ الَّذِي يُؤَدِّيهِ، مَنْ رَاحَ يَحْمِلُ الصَّنَادِيقَ مِنْ فَوْقِ الْعَرَبَاتِ وَالْجِمَالِ وَالْحَمِيرِ وَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْمَخَازِنِ، وَمَنْ رَاحَ يُطْعِمُ الدَّوَابَّ، وَحِينَ اطْمَأَنَّ الرَّجُلُ الْوَاقِفُ فِي الْعُلِّيَّةِ عَلَى تَنْفِيذِ أَمْرِهِ جَلَسَ يُخَاطِبُ ضَيْفَهُ.

تَسَاءَلَتْ نَفْسِي وَقَالَتْ:

- هَلْ يَسْتَخْدِمُ أَهْلُ الْبَادِيَةِ كُلَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؟

رَفَضَ عَقْلِي التَّسْلِيمَ بِهَذَا الْأَمْرِ؛ فَلِلْبَدَوِيِّ حَيَاةٌ يَرْضَاهَا، لَا تَحْتَاجُ لِكُلِّ هَذَا التَّرَفِ، عِنْدَهُ صُوفُ غَنَمِهِ وَأَوْبَارُ جِمَالِهِ يَصْنَعُ مِنْهَا بَيْتَهُ وَفِرَاشَهُ، وَعِنْدَهُ أَلْبَانُهَا يَشْرَبُ مِنْهَا وَيَصْنَعُ طَعَامَهُ، وَلَدَيْهِ أَشْجَارُ الزَّيْتُونِ وَالنَّخِيلِ تُعْطِيهِ ثِمَارَهَا، وَآبَارٌ وَيَنَابِيعُ تَرْوِي الْأَرْضَ لِتُنْتِجَ لَهُ الْقَمْحَ وَالشَّعِيرَ، فَلَنْ يُفَكِّرَ أَبَدًا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

وَرُحْتُ أَتَجَوَّلُ فِي السُّوقِ، بَيْنَمَا عَقْلِي يَبْحَثُ عَنْ سَبَبٍ لِجَلْبِ كُلِّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، وَقَعَتْ عَيْنَايَ عَلَى الْفَتَاةِ السَّمْرَاءِ الْجَمِيلَةِ ذَاتِ الْعُيُونِ اللَّامِعَةِ وَالْأَسْنَانِ الْبَرَّاقَةِ وَالشَّعْرِ الطَّوِيلِ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي الْمَعْبَدِ، رَأَيْتُهَا وَهِيَ تَصْعَدُ الدَّرَجَ فِي اتِّجَاهِ الرَّجُلَيْنِ، أَسْرَعْتُ أَقْتَرِبُ مِنْهَا، رَاقَبْتُهَا وَهِيَ تَدْخُلُ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي يَرْتَدِي الْمَلَابِسَ الرُّومَانِيَّةَ، هَبَّ الرَّجُلُ لِاسْتِقْبَالِهَا فَرِحًا بِهَا، أَمْسَكَ بِيَدِهَا وَقَدَّمَهَا إِلَى ضَيْفِهِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ:

- هَذِهِ ابْنَتِي بت زاباي.

ضَحِكَ الضَّيْفُ مُعَلِّقًا وَهُوَ يَقُولُ:

- مَرْحَبًا بِابْنَةِ الْمُشْتَرِي.

ثُمَّ قَالَ لِوَالِدِ الْفَتَاةِ:

ـ لَكَ ابْنَةٌ جَمِيلَةٌ يَا سَبْتِيمُوسَ عَمْرٍو.. أَجْمَلُ وَجْهٍ رَأَيْتُهُ فِي بَالْمِيرَا.

قَالَتِ الْفَتَاةُ فِي جِدِّيَّةٍ وَحَزْمٍ:

ـ لَا أُحِبُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاطِبَ وَالِدِي بِهَذَا اللَّقَبِ! وَالِدِي اسْمُهُ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ. وَهُوَ كَبِيرُ تُجَّارِ تَدْمُرَ وَقَاضِيهِمْ. وَعَضْوُ مَجْلِسِ الشُّـــيُوخِ أَيْضًا. كَمَا أَنَّنِي لَا أُحِبُّ اسْمَ بت زاباي هَذَا. أَنَا اسْمِي زَيْنَبُ، وَبَلَدِي اسْمُهَا تَدْمُرُ، وَلَيْسَتْ بَالْمِيرَا.



شَــــعَرَ قَائِدُ الْقَافِلَةِ بِالْحَرَجِ، وَحَاوَلَ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ، فَقَالَ ضَاحِكًا:

- لَا تَغْضَبْ مِنِ ابْنَتِي؛ فَهِيَ تَعْتَزُّ بِعُرُوبَتِهَا كَثِيرًا.

ثُمَّ وَجَّهَ حَدِيثَهُ لِابْنَتِهِ، وَقَالَ لَهَا:

- انْتَظِرِينِي قَلِيلًا.. سَــــنَذْهَبُ مَعًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِنَسْتَأْجِرَ إِبِلَ الْقَبَائِلِ وَفُرْسَانَهَا، وَلِشِرَاءِ مَئُونَةِ الْقَافِلَةِ الْجَدِيدَةِ الذَّاهِبَةِ إِلَى الْفُرَاتِ؛ فَمَا أَتَانَا مِنْ بِضَاعَةٍ لَا بُدَّ أَنْ يُنْقَلَ إِلَى هُنَاكَ.

انْسَحَبَتْ زَيْنَبُ بَعِيدًا، وَعَادَ الرَّجُلُ يُنْهِي أَعْمَالَهُ مَعَ قَائِدِ الْقَافِلَةِ.

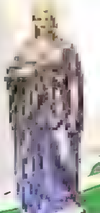


فَهِمْتُ الْآنَ مَا لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُهُ، وَتَذَكَّرْتُ مَا كُنْتُ قَرَأْتُهُ مِنْ قَبْلُ؛ فَالطُّرُقُ التِّجَارِيَّةُ الْبَرِّيَّةُ بَيْنَ بِلَادِ الشَّامِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَبَيْنَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ.. وَالْعَالَمِ الرُّومَانِيِّ لَا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ مِنْ تَدْمُرَ، أَيْ أَنَّهَا صَارَتْ مَرْكَزًا لِلتِّجَارَةِ الدَّوْلِيَّةِ، وَأَصْبَحَتْ حَلْقَةً أَسَاسِيَّةً فِي طَرِيقِ الْحَرِيرِ الْمُهِمَّةِ بَيْنَ الصِّينِ وَالْعَالَمِ الرُّومَانِيِّ، وَقَدْ تَحَوَّلَ أَهْلُهَا إِلَى تُجَّارٍ وَوُسَطَاءَ تِجَارِيِّينَ وَحُمَاةٍ لِلْقَوَافِلِ، وَصَارَتْ لَهُمُ الْحُرِّيَّةُ الْكَامِلَةُ فِي إِدَارَةِ سِيَاسَتِهَا وَإِصْدَارِ قَوَانِينِهَا، وَتَقْدِيرِ ضَرَائِبِهَا عَلَى مَا يَدْخُلُ إِلَيْهَا أَوْ يَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ الْبَضَائِعِ، لِهَذَا ازْدَهَرَتْ تَدْمُرُ كُلَّ هَذَا الِازْدِهَارِ الِاقْتِصَادِيِّ، وَصَارَ أَهْلُهَا يَعِيشُونَ فِي هَذَا التَّرَفِ وَالْبَذَخِ الَّذِي أَرَاهُ.

أَنْهَى عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ اسْتِلَامَ الْبِضَاعَةِ الْقَادِمَةِ مَعَ الْقَافِلَةِ مِنَ الشَّرْقِ، وَانْصَرَفَ قَائِدُهَا، وَجَلَسَ الرَّجُلُ وَحِيدًا يُفَكِّرُ فِي ابْنَتِهِ الَّتِي تَرَكَهَا تَعِيشُ فِي الْبَادِيَةِ طُفُولَتَهَا وَصِبَاهَا، فَاشْتَدَّ عُودُهَا وَتَعَلَّمَتِ الْفُرُوسِيَّةَ وَرُكُوبَ الْخَيْلِ وَلَفَحَتْهَا حَرَارَةُ الشَّمْسِ فَصَارَتْ فَتَاةً سَمْرَاءَ جَمِيلَةً، وَتَأَمَّلَتِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَصَارَتْ ذَاتَ ذَكَاءٍ مُتَوَهِّجٍ، وَبَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ. وَأَحْضَرَ لَهَا الْمُعَلِّمِينَ فِي بَيْتِهِ، فَعَلَّمُوهَا كَيْفَ تَكْتُبُ وَتَقْرَأُ بِالْإِغْرِيقِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ، فَقَرَأَتِ التَّرَاجِيدْيَا الْإِغْرِيقِيَّةَ وَتَعَلَّمَتْ مِنْ أَبْطَالِهَا، وَعَرَفَتْ مَظَاهِرَ الِاسْتِعْبَادِ وَشُرُوطَ الْحُرِّيَّةِ، وَعَرَفَتْ كَيْفَ تُمَيِّزُ الصَّدِيقَ وَلَا تُخْطِئُ الْعَدُوَّ، وَعَرَفَتْ مَعْنَى الثَّوْرَةِ.

أَفَاقَ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ عَلَى خُطُوَاتِ ابْنَتِهِ وَهِيَ قَادِمَةٌ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ صَوْتَهَا وَهِيَ تَقُولُ لَهُ بِجِدِّيَّةٍ:

ـ أَبِي.. أَنَا لَا أُحِبُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُسَمِّيَ بَلَدِي بِاسْمِ بَالْمِيرَا، أَوْ يُنَادِيكَ بِلَقَبِ سَبْتِيمُوسَ، أَوْ يَصِفَنِي بِبِنْتِ الْمُشْتَرِي.



رَدَّ الْأَبُ، وَسَأَلَ مُتَعَجِّبًا:

ـ وَلِمَ يَا ابْنَتِي؟!

صَمَتَتْ زَيْنَبُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَتْ:

ـ لِأَنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الاحْتِلَالِ يَجِبُ أَنْ نَخْلَعَهُ عَنْ أَنْفُسِنَا.

ثُمَّ قَالَتْ شَارِحَةً لِأَبِيهَا:

ـ نَحْنُ الْآنَ مَمْلَكَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ يَا أَبِي.

ثُمَّ قَالَتْ مُؤَكِّدَةً:

ـ يَا وَالِدِي..لَا بُدَّ أَنْ نَنْسَى مَا فَعَلَهُ الرُّومَانُ فِينَا.. فَقَدْ بَدَّلُوا كُلَّ شَيْءٍ عَرَبِيٍّ إِلَى رُومَانِيٍّ.

فِي الْبِدَايَةِ تَرَكُونَا نَحْكُمُ أَنْفُسَنَا.. هَذَا صَحِيحٌ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا فِي كُلِّ خُطْوَةٍ نَخْطُوهَا، يُطِلُّونَ عَلَيْنَا. وَآنَ الْأَوَانُ أَنْ نَنْسَى وُجُودَهُمْ. آنَ الْأَوَانُ أَنْ نَشْعُرَ بِاسْتِقْلَالِنَا وَبِحُرِّيَّتِنَا وَبِعُرُوبَتِنَا الْحَقَّةِ.

ثُمَّ تَنَهَّدَتْ تَنْهِيدَةً طَوِيلَةً، وَوَاصَلَتْ جِدَالَهَا مَعَ أَبِيهَا وَقَالَتْ:

ـ عَقْلِي يَقُولُ لِي إِنَّ الرُّومَانَ لَنْ يَقْبَلُوا إِعْلَانَ سَيِّدِنَا أُذَيْنَةَ بْنِ السَّمَيْدَعِ اسْتِقْلَالَهُ عَنْهُمْ، وَإِعْلَانَ تَدْمُرَ مَمْلَكَةً، وَمُبَايَعَتَنَا لَهُ مَلِكًا عَلَيْهَا.

وَأَشَارَتْ إِلَى خَارِجِ الْأَسْوَارِ وَهِيَ تَقُولُ:

ـ مَاذَا تَفْعَلُ الْحَامِيَةُ الرُّومَانِيَّةُ خَارِجَ أَسْوَارِنَا؟

ثُمَّ قَالَتْ تَرُدُّ عَلَى سُؤَالِهَا:

ـ أَظُنُّ أَنَّهَا لِتَأْدِيبِ مَنْ يَخْرُجُ عَنْ طَاعَتِهِمْ.

وَفَجْأَةً.. دَوَّى صَوْتٌ كَالرَّعْدِ، زَلْزَلَ أَرْجَاءَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ:

ـ لَقَدِ اغْتِيلَ الْمَلِكُ فِي قَصْرِهِ!!

نَسِيَتْ زَيْنَبُ كُلَّ شَيْءٍ، أَسْرَعَتْ كَالْفَهْدِ تَخْتَرِقُ جُمُوعَ النَّاسِ، وَأَخَذَتْ طَرِيقَهَا إِلَى قَصْرِ أُذَيْنَةَ الْكَبِيرِ، وَتَرَكَ النَّاسُ كُلَّ مَا يَفْعَلُونَ وَرَاحُوا يَتَسَاءَلُونَ فِي ذُهُولٍ، وَيَقُولُونَ:

- كَيْفَ يُقْتَلُ الْمَلِكُ وَهُوَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَحِبَّائِهِ؟!

- لَمْ يَحْدُثْ فِي تَارِيخِ تَدْمُرَ أَنِ اغْتِيلَ رَئِيسٌ!

- الْقَبَائِلُ كُلُّهَا تُحِبُّهُ وَتَحْتَرِمُهُ. لَيْسَ هُوَ فَقَطْ، بَلْ كُلُّ عَائِلَتِهِ الَّتِي تَوَلَّى رِجَالُهَا رِئَاسَةَ تَدْمُرَ وَزَعَامَتَهَا عَلَى مَرِّ السِّنِينَ.

قَالَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ:

- لَمْ يَقْتُلْهُ غَيْرُ الرُّومَانِ.

عَلَّقَ آخَرُ وَقَالَ مُؤَكِّدًا:

- لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ إِلَّا رُوفِينُوسُ مَنْدُوبُ الْقَيْصَرِ. بِالتَّأْكِيدِ هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ وَهَرَبَ.

عَلَّقَ ثَالِثٌ وَقَالَ فِي دَهْشَةٍ:

- كَانَ الرُّومَانُ يَعْتَبِرُونَهُ أَحَدَ قَيَاصِرَتِهِمْ. فَكَيْفَ يَقْتُلُونَهُ؟!

رَدَّ رَابِعٌ وَقَالَ:

- كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَمَرَّدَ عَلَيْهِمْ، وَيُعْلِنَ نَفْسَهُ مَلِكًا.

٤



وَدَّعَتْ كُلُّ قَبَائِلِ تَدْمُرَ مَلِكَهَا إِلَى قَبْرِهِ، وَعَادُوا إِلَى خِيَامِهِمُ السَّوْدَاءِ فِي الْبَادِيَةِ، وَاجْتَمَعَ الشُّيُوخُ يَتَشَاوَرُونَ، وَيَتَسَاءَلُونَ عَمَّنْ يَخْلُفُ الْمَلِكَ.

لَمْ يَحْضُرْ أُذَيْنَةُ ابْنُ الْفَقِيدِ اجْتِمَاعَهُمْ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ وَدَاعَ أَبِيهِ إِلَى قَبْرِهِ، بِمُجَرَّدِ أَنْ سَمِعَ بِخَبَرِ مَوْتِهِ، أَسْرَعَ يَقُودُ رِجَالَهُ إِلَى كُلِّ الطُّرُقَاتِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِأَسْوَارِ الْمَدِينَةِ. وَكُلُّ الْأَوَامِرِ الَّتِي أَصْدَرَهَا لَهُمْ، هِيَ مَعْرِفَةُ مَنْ دَخَلَ الْمَمْلَكَةَ وَمَنْ خَرَجَ، فَقَاتِلُ أَبِيهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَكَانَ يَأْمَلُ فِي الْقَبْضِ عَلَيْهِ.

وَبَيْنَمَا شُيُوخُ الْمَجْلِسِ فِي نِقَاشٍ وَمُشَاوَرَاتٍ لِاخْتِيَارِ مَنْ يَتَوَلَّى إِدَارَةَ الْبِلَادِ، إِذَا بِأُذَيْنَةَ يَدْخُلُ مُنْدَفِعًا وَهُوَ يَصِيحُ وَيَقُولُ:

- الَّذِي قَتَلَ أَبِي هُوَ رُوفِينُوسُ مَنْدُوبُ قَيْصَرِ رُومَا.

فُوجِئَ الْجَمِيعُ بِمَا سَمِعُوا، لَكِنَّهُمْ جَمِيعًا تَسَاءَلُوا وَقَالُوا:

- هَلِ اسْتَطَعْتَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ؟

أَجَابَ أُذَيْنَةُ وَهُوَ يَجْلِسُ فِي مَكَانِهِ:

- هَرَبَ الْجَبَانُ كَالْأَرْنَبِ الْبَرِّيِّ إِلَى الْجُحُورِ، وَلَمْ أَعْثُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ!

سَأَلَهُ أَخُوهُ الْكَبِيرُ (خَيْرَانُ) وَقَالَ لَهُ:

- هَلْ عَرَفْتَ سَبَبَ إِقْدَامِ الرُّومَانِ عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ الشَّنْعَاءِ؟



أَجَابَ أُذَيْنَةُ وَقَالَ:

ـ لَيْسَ هُنَاكَ مِنْ سَبَبٍ إِلَّا إِعْلَانَ أَبِينَا نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَى تَدْمُرَ.

طَأْطَأَ خَيْرَانُ رَأْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَشَرَدَ مُفَكِّرًا فِي أَمْرٍ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ أَحَدًا، أَمَّا أُذَيْنَةُ فَقَدْ رَاحَ يُجَفِّفُ دَمْعَ عَيْنَيْهِ فِي صَمْتٍ.. ثُمَّ قَالَ يُخَاطِبُ أَعْضَاءَ الْمَجْلِسِ:

ـ قَيْصَرُ رُومَا الَّذِي كَانَ أَبُونَا يُؤَيِّدُهُ وَيُنَفِّذُ لَهُ مَا يُرِيدُ، وَالَّذِي كَانَ يَدَّعِي أَنَّهُ يُسَانِدُ أَبَانَا وَيَمُدُّهُ بِالْقُوَّةِ وَيَخْلَعُ عَلَيْهِ الْأَلْقَابَ. هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَ مَنْ يَقْتُلُهُ!!

يَجِبُ أَلَّا نَخَافَ، وَأَنْ تَظَلَّ تَدْمُرُ مَمْلَكَةً مُسْتَقِلَّةً.

نَظَرَ إِلَيْهِ خَيْرَانُ نَظْرَةً مُتَسَائِلَةً صَامِتَةً وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَاسْتَطْرَدَ أُذَيْنَةُ يَقُولُ:

ـ لَا بُدَّ مِنِ اسْتِمْرَارِ تَدْمُرَ مَمْلَكَةً مُسْتَقِلَّةً.

ثُمَّ صَاحَ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ تَرَدَّدَ فِي أَرْجَاءِ الْقَاعَةِ الرُّخَامِيَّةِ:

ـ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَحْمِي اسْتِقْلَالَنَا.. لَا بُدَّ أَنْ نَبْنِيَ قُوَّتَنَا.

لَمْ يُعَلِّقْ أَحَدٌ مِنْ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ عَلَى أَيَّةِ كَلِمَةٍ مِمَّا قَالَ أُذَيْنَةُ، سَوَاءٌ بِالْمُوَافَقَةِ أَوْ بِالرَّفْضِ! وَأَخِيرًا نَطَقَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَقَالَ:

ـ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ نَخْتَارَ مَنْ يَخْلُفُ فَقِيدَنَا الْعَظِيمَ.

رَدَّ ثَانٍ وَقَالَ:

ـ طِبْقًا لِلتَّقَالِيدِ فَإِنَّ الِابْنَ الْأَكْبَرَ لِلْفَقِيدِ هُوَ الَّذِي يَرْأَسُ الْمَجْلِسَ، وَيَتَوَلَّى حُكْمَ الْمَدِينَةِ.

صَارَ خَيْرَانُ رَئِيسًا لِتَدْمُرَ، وَتَفَرَّقَ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ كُلٌّ إِلَى حَالِهِ. وَعَادَ عَمْرُو ابْنُ الظَّرِبِ إِلَى قَصْرِهِ، وَجَدَ ابْنَتَهُ تَدُورُ فِي الْمَكَانِ كَالْفَهْدِ الْغَاضِبِ، كُلَّمَا حَاوَلَ وَالِدُهَا الاقْتِـرَابَ مِنْهَا، انْتَفَضَتْ مُبْتَعِدَةً! فَأَدْرَكَ مَـا بِهَا مِنْ حُبٍّ وَغَيْرَةٍ عَلَى وَطَنِهَا، فَأَمْسَكَ بِهَا مِنْ كَتِفَيْهَا وَهَزَّهَا بِعُنْفٍ وَهُوَ يَصِيحُ فِيهَا، وَيَقُولُ لَهَا:

- اهْدَئِي.

صَاحَتْ زَيْنَبُ ثَائِرَةً تَقُولُ:

- هَذَا هُوَ الْمُسْتَعْمِرُ.. مَنْ يَخْرُجْ عَنْ طَاعَتِهِ يُقْتَلْ!

صَمَتَ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ قَلِيلًا يُفَكِّرُ، رَاحَ يُتَمْتِمُ بِمَا يُفَكِّرُ فِيهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، فَهُوَ لَمْ يُصَدِّقْ مَا سَمِعَهُ مِنْ أُذَيْنَةَ الابْنِ فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، وَلَمْ يُصَدِّقْ مَا قَالَتْهُ ابْنَتُهُ الْآنَ، فَكَيْفَ يَقْتُلُ الرُّومَانُ حَلِيفًا لَهُمْ، يَمُدُّ جَيْشَـهُمْ بِالْمُقَاتِلِينَ، وَيُسَدِّدُ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنَ الضَّرَائِبِ الَّتِي يَفْرِضُونَهَا عَلَى كُلِّ مَا يَدْخُلُ تَدْمُرَ مِنْ بِضَاعَةٍ أَوْ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَيَحْمِي بِجُيُوشِهِ ظَهْرَ جُيُوشِهِمُ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفُرْسِ؟!!

رَجُلٌ مِثْلُ هَذَا.. كَيْفَ يَقْتُلُهُ حُلَفَاؤُهُ؟!!

لَمْ يَشْعُرْ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ بِأَنَّهُ يُفَكِّرُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَأَنَّ ابْنَتَهُ سَمِعَتْ كُلَّ مَا فَكَّرَ فِيهِ، إِلَّا حِينَ سَمِعَهَا تَتَنَهَّدُ طَوِيلًا وَتَقُولُ:

- آهٍ يَا شَعْبَ سُورِيَا.. يَا مَنْ تُعَانِي قَسْوَةَ الْمُحْتَلِّينَ.

وَآهٍ يَا تَدْمُرَ الضَّائِعَةَ وَحِيدَةً فِي الصَّحْرَاءِ، وَلَوْلَا سِلْسِـلَةُ الْجِبَالِ الَّتِي تُحِيطُ بِكِ لَكَانَ الْفُرْسُ وَالرُّومَانُ يَتَصَارَعَانِ مِنْ أَجْلِكِ عَلَى أَرْضِكِ.

وَآهٍ يَـا بَادِيَةَ تَدْمُرَ الشَّاسِـعَةَ بِأَشْـجَارِ نَخِيلِكِ وَرُمَّانِـكِ وَزَيْتُونِكِ، مِنَ الْمُحْتَلِّينَ.

ثُمَّ وَجَّهَتْ حَدِيثَهَا إِلَى وَالِدِهَا وَسَأَلَتْهُ قَائِلَةً:

ـ لِمَاذَا لَمْ يُصْبِحْ أُذَيْنَةُ الِابْنُ رَئِيسًا لِمَجْلِسِ الشُّيُوخِ خَلَفًا لِوَالِدِهِ؟! لِمَاذَا اخْتَرْتُمْ خَيْرَانَ؟!

أَجَابَ الْأَبُ وَقَالَ:

ـ لِأَنَّ خَيْرَانَ هُوَ الِابْنُ الْأَكْبَرُ لِلْفَقِيدِ، هَكَذَا تُحَتِّمُ التَّقَالِيدُ.

عَلَّقَتْ قَائِلَةً:

ـ خَيْرَانُ هَذَا لَا يُجِيدُ فَنَّ الْحُرُوبِ.

قَالَ الْوَالِدُ مُؤَكِّدًا:

ـ لَكِنَّهُ يُجِيدُ فَنَّ الْحَيَاةِ.

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ وَقَالَ:

ـ يَا ابْنَتِي.. مَا لَنَا وَلِلْحُرُوبِ؟! نَحْنُ لَا نَقْدِرُ عَلَى مُوَاجَهَةِ قُوَّةِ الرُّومِ أَوِ الْفُرْسِ.

عَلَّقَتِ الِابْنَةُ وَقَالَتْ:

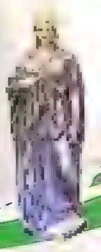
ـ آمُلُ أَنْ يَبْنِيَ أُذَيْنَةُ الِابْنُ جَيْشًا قَوِيًّا لِمُوَاجَهَتِهِمْ.

أَدْرَكَ الْأَبُ أَنَّ ابْنَتَهُ ازْدَادَتْ كَرَاهِيَةً لِلرُّومَانِ، وَلِكُلِّ مَظَاهِرِ وُجُودِهِمْ عَلَى أَرْضِ تَدْمُرَ، وَأَدْرَكَ صِحَّةَ قَوْلِهَا، وَأَرَادَ أَنْ يُنْهِيَ هَذَا الْحِوَارَ بِأَمْرٍ تُحِبُّهُ هِيَ، فَقَالَ لَهَا:

ـ هَلْ تُحِبِّينَ اسْمَكِ الْعَرَبِيَّ؟

رَدَّتْ بِفَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ وَقَالَتْ:

ـ زَيْنَبُ.. طَبْعًا أُحِبُّهُ.



قَالَ الْأَبُ ضَاحِكًا:

ـ لَنْ أُنَادِيَكِ بِاسْمِكِ الرُّومَانِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ، أَنْتِ زَيْنَبُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ، وَسَأُدَلِّلُكِ بِاسْمِ زِنُوبْيَا.. مَا رَأْيُكِ؟

قَفَزَتْ زَيْنَبُ فِي الْهَوَاءِ فَرَحًا كَطِفْلَةٍ صَغِيرَةٍ، وَقَالَتْ:

ـ طَبْعًا مُوَافِقَةٌ، وَسَعِيدَةٌ أَيْضًا.

قَذَفَتِ الِابْنَةُ بِنَفْسِهَا فِي حِضْنِ أَبِيهَا، وَطَوَّقَتْهُ بِذِرَاعَيْهَا الْقَوِيَّتَيْنِ، وَهِيَ تَقُولُ:

ـ شُكْرًا يَا أَبِي.

عَادَتْ عَلَامَاتُ الرِّضَا إِلَى وَجْهِهَا الْأَسْمَرِ الْجَمِيلِ، فَقَالَ لَهَا:

ـ سَأُخْبِرُ الدُّنْيَا كُلَّهَا بِأَنَّ اسْمَكِ مِنَ الْآنَ، هُوَ زِنُوبْيَا.

رَدَّتْ قَائِلَةً:

ـ شَخْصٌ وَاحِدٌ فَقَطْ هُوَ الَّذِي أُرِيدُهُ أَنْ يَعْرِفَ الْآنَ يَا أَبِي.

تَسَاءَلَ وَقَالَ:

ـ مَنْ هُوَ؟

رَدَّتْ مُسْرِعَةً وَقَالَتْ:

ـ أُذَيْنَةُ.. ذَلِكَ الرَّجُلُ الثَّائِرُ الْمُتَمَرِّدُ الَّذِي يَحْلُمُ مِثْلِي بِتَحْرِيرِ تَدْمُرَ وَتَحْرِيرِ كُلِّ الْأَرْضِ السُّورِيَّةِ مِمَّنِ احْتَلَّهَا سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْفُرْسِ أَوِ الرُّومِ.

ثُمَّ قَالَتْ مُتَسَائِلَةً:

ـ لَكِنْ أَيْنَ هُوَ الْآنَ؟ سَأُسَاعِدُهُ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْحُلْمِ بِكُلِّ الطُّرُقِ الْمُمْكِنَةِ.

جَلَسَ الْأَبُ فِي هُدُوءٍ وَهُوَ يَقُولُ:

- أُذَيْنَةُ يَأْلَفُ الْبَادِيَةَ، فَمُنْذُ صِغَرِهِ وَهُوَ فَارِسٌ شُجَاعٌ، مُحِبٌّ لِلصَّيْدِ، جَرِيءٌ، لَا يُطَارِدُ إِلَّا الْأُسُودَ وَالْفُهُودَ وَالذِّئَابَ. بِالتَّأْكِيدِ هُوَ هُنَاكَ. هَذَا هُوَ الْقَائِدُ الَّذِي يَأْتِي بِالْحُرِّيَّةِ لِشَعْبِهِ.

انْطَلَقَتْ زِنُوبْيَا خَارِجَةً. اسْتَوْقَفَهَا وَالِدُهَا مُتَسَائِلًا:

- إِلَى أَيْنَ؟

قَالَتْ وَهِيَ تُوَاصِلُ انْدِفَاعَهَا إِلَى الْخَارِجِ:

- إِلَى الْبَادِيَةِ.

٥

كَانَ أَوَّلُ قَرَارٍ اتَّخَذَهُ خَيْرَانُ هُوَ إِعْلَانَ وَلَائِهِ لِلرُّومَانِ، لَقَدْ فَكَّرَ كَثِيرًا وَوَجَدَ أَنَّ اتِّبَاعَ سِيَاسَـــةِ أَبِيهِ لَنْ يَضْمَنَ لَهُ الْحَيَاةَ، وَرُبَّمَا وَصَلَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى اغْتِيَالِهِ كَمَا اغْتَالُوهُ، لِذَلِكَ آثَرَ السَّلَامَةَ وَأَعْلَنَ قَرَارَهُ بِالْوَلَاءِ لَهُمْ وَالتَّقَرُّبِ مِنْهُمْ، فَرَضُوا عَنْهُ، وَمَنَحُوهُ لَقَبَ أَمِيرِ تَدْمُرَ.

وَغَضِـــبَ أُذَيْنَةُ مِنْ قَرَارِ أَخِيهِ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ؛ فَهُـــوَ يُخَالِفُ كُلَّ طُمُوحَاتِهِ وَأَحْلَامِهِ، فَتَرَكَ الْمَدِينَةَ بِكُلِّ ضَجِيجِهَا وَصَخَبِ أَسْـــوَاقِهَا، وَذَهَبَ إِلَى الْبَادِيَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا، وَيَأْلَفُ الْحَيَاةَ فِيهَا مُنْذُ صِغَرِهِ، وَرَاحَ يَبُثُّ أَشْجَارَ نَخِيلِهَا وَرُمَّانِهَا وَزَيْتُونِهَا أَحْزَانَهُ وَآلَامَهُ لِفِرَاقِ وَالِدِهِ..الَّذِي اغْتَالَهُ الرُّومَانُ لِمُجَرَّدِ أَنْ أَعْلَنَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَى بِلَادِهِ.

وَحِينَ لَا تَقْدِرُ مُنَاجَاتُهُ لِلْأَشْـــجَارِ وَالْبَوْحُ لَهَا عَلَى التَّخْفِيفِ مِنْ حِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْمَرَارَةِ الَّتِي تَتَمَلَّكُهُ، يَخْرُجُ لِصَيْدِ الْأُسُودِ وَالْفُهُودِ وَالذِّئَابِ، لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُطَارِدَ فَرِيسَةً صَيْدُهَا سَهْلٌ وَمَيْسُورٌ، يُطَارِدُ السِّبَاعَ وَهُوَ يَتَمَثَّلُهُمْ قَادَةَ أَعْدَائِهِ وَمُحْتَلِّي أَرْضِ وَطَنِـــهِ. وَهُوَ يَتَمَنَّى أَنْ يَأْتِيَ الْوَقْتُ لِيَقَعُـــوا فَرَائِسَ بِنِبَالِهِ وَرِمَاحِهِ كَمَا يَفْعَلُ فِي صَيْدِهِ.

وَصَارَ يَجْلِسُ بِالسَّاعَاتِ وَسَطَ بَدْوِ الصَّحْرَاءِ وَرُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ، يُحَادِثُهُمْ عَنْ حُلْمِهِ بِالْيَوْمِ الَّذِي يَطْرُدُونَ فِيهِ الْفُرْسَ وَالرُّومَ مِنَ الْأَرَاضِي السُّـــورِيَّةِ وَتَكْوِينِ

دَوْلَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، حُرَّةٍ وَقَوِيَّةٍ.. عَاصِمَتُهَا تَدْمُرُ، تَتَحَدَّى الْإِمْبِرَاطُورِيَّةَ الرُّومَانِيَّةَ الَّتِي اغْتَالَتْ أَبَاهُ وَقَضَتْ عَلَى حُلْمِهِ.

وَيَنْتَقِلُ حُلْمُ الْقَائِدِ إِلَى عُقُولِ وَقُلُوبِ الرِّجَالِ، وَلِمَ لَا؟! فَهَؤُلَاءِ هُمْ مَنْ أَحَبُّوهُ وَالْتَفُّوا حَوْلَهُ فِي حَفْلِ زَوَاجِهِ وَهُوَ ابْنُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ، وَهُمْ مَنْ وَقَفُوا بِجَانِبِهِ حِينَ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ عِنْدَ وِلَادَتِهَا ابْنَهُمَا الْوَحِيدَ الَّذِي أَسْمَاهُ هيروديس. فَيُعْلِنُونَ مُسَانَدَتَهُمْ لَهُ وَاسْتِعْدَادَهُمْ لِلْقِتَالِ لِتَنْفِيذِ حُلْمِهِمْ جَمِيعًا.. حُلْمِ تَدْمُرَ الْحُرَّةِ.

يَعْرِفُ الْقَائِدُ أَنَّهُ لَا حُرِّيَّةَ بِلَا قُوَّةٍ، وَأَنَّ رِجَالَ الْبَادِيَةِ هُمُ الْقُوَّةُ الَّتِي سَيَسْتَعِينُ بِهَا لِتَحْرِيرِ الْوَطَنِ، فَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مَثِيلٌ فِي الْعَالَمِ فِي الْقِتَالِ بِالْحِرَابِ وَالنِّبَالِ مِنْ فَوْقِ ظُهُورِ الْخَيْلِ وَالنُّوقِ، وَكَمِ اسْتَعَانَ بِهِمْ جَيْشُ الرُّومِ فِي حُرُوبِهِ.

لَكِنْ هُنَاكَ قَبَائِلُ تَدِينُ بِالْوَلَاءِ لِعَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ وَلَا بُدَّ أَنْ تَنْضَمَّ إِلَيْهِ.

فَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ وَالِدُ زِنُوبْيَا زَعِيمًا فِي عَشِيرَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ تَاجِرًا وَقَاضِيًا لِلتُّجَّارِ وَقَائِدَ قَافِلَةٍ مِنْ تَدْمُرَ حَتَّى مَوَانِي الْفُرَاتِ، وَعُضْوًا فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، وَلَهُ أَرَاضٍ وَمَوَاشٍ فِي الْبَادِيَةِ، وَهَؤُلَاءِ يَدِينُونَ بِالْوَلَاءِ لَهُ، وَهُمْ مَنْ تَرَبَّتِ ابْنَتُهُ فِي وَسَطِهِمْ، وَكَثِيرًا مَا يَصْطَحِبُهَا مَعَهُ لِزِيَارَتِهِمْ.

وَهَؤُلَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَسْمَحَ لَهُمْ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ بِالِانْضِمَامِ إِلَيْهِ.

وَبَيْنَمَا أُذَيْنَةُ وَسَطَ قَادَةِ الْقَبَائِلِ وَرُؤَسَائِهَا يَتَشَاوَرُونَ، فَإِذَا بِهِمْ يَرَوْنَ فَارِسًا يَشُقُّ غُبَارَ الرِّمَالِ وَيُسَابِقُ الرِّيحَ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِمْ، فَتَعَجَّبُوا وَقَالُوا:

ـ تُرَى مَا الَّذِي حَدَثَ حَتَّى يَأْتِيَ ذَلِكَ الْفَارِسُ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ؟!

تَوَقَّفَ عَقْلُ الرِّجَالِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي أَيِّ شَيْءٍ إِلَّا فِيمَنْ يَكُونُ هَذَا الْفَارِسُ، وَلِمَاذَا هُوَ قَادِمٌ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ؟! وَظَنُّوا أَنَّ فِي الْأَمْرِ مُصَابًا جَدِيدًا، وَقَدْ جَاءَ يُبَلِّغُهُ إِلَى أُذَيْنَةَ، وَاتَّجَهَتْ أَنْظَارُ بَعْضِهِمْ إِلَيْهِ مُشْفِقِينَ عَلَيْهِ، أَلَا يَكْفِيهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَحْزَانٍ وَآلَامٍ؟

لَمْ يَطُلِ انْتِظَارُ أُذَيْنَةَ وَلَا مَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْبَادِيَةِ، وَتَوَقَّفَ الْجَوَادُ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ، وَقَفَزَ الْفَارِسُ مِنْ فَوْقِهِ إِلَى الْأَرْضِ.. فَإِذَا بِهَا زِنُوبْيَا ابْنَةُ عَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ، وَالسَّيْفُ فِي غِمْدِهِ مُعَلَّقٌ فِي وَسَطِهَا. صَاحَ بَعْضُهُمْ فِي انْدِهَاشٍ يَقُولُ:

- بت زاباي بِنْتُ سَبْتِيمُوسَ عَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ!

صَاحَتْ تَقُولُ:

- لَا.. زَيْنَبُ بِنْتُ عَمْرٍو. قَدْ خَلَعْنَا أَنَا وَأَبِي عَنْ أَنْفُسِنَا الْيَوْمَ كُلَّ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ الرُّومَانِيَّةِ، وَعُدْنَا إِلَى أَسْمَائِنَا الْعَرَبِيَّةِ.

هَبَّ أُذَيْنَةُ مِنْ مَكَانِهِ وَرَاحَ يُرَحِّبُ بِالضَّيْفَةِ الْفَارِسَةِ، وَهُوَ يَقُولُ لَهَا:

- مَرْحَبًا يَا زَيْنَبُ بِنْتُ عَمْرٍو، تَفَضَّلِي.

قَادَهَا لِتَجْلِسَ بِجِوَارِهِ وَسَطَ الرِّجَالِ، وَحِينَ اسْتَقَرَّتْ فِي مَكَانِهَا، وَرَاحَتْ تَقْرَأُ الْعُيُونَ الَّتِي حَوْلَهَا، رَأَتْ فِيهَا الدَّهْشَةَ وَالْعَجَبَ مِمَّا قَالَتْ، فَاسْتَطْرَدَتْ تَقُولُ:

- حَتَّى مَدِينَتُنَا، رَمَتْ عَنْ نَفْسِهَا اسْمَ بَالْمِيرَا الرُّومَانِيَّ، وَعَادَتْ تَدْمُرَ الْعَرَبِيَّةَ.

زَادَتْ دَهْشَةُ الرِّجَالِ وَرَاحُوا يَنْظُرُونَ إِلَى بَعْضِهِمْ، فَقَالَتْ لَهُمْ فِي مَوَدَّةٍ:

- مَنْ يُرِدْ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلَ أَبِي فَلْيُنَادِنِي بِاسْمِ زِنُوبْيَا. هَذَا هُوَ الِاسْمُ الَّذِي أَرَادَ أَبِي أَنْ يُدَلِّلَنِي بِهِ.

صَاحُوا جَمِيعًا وَقَالُوا:

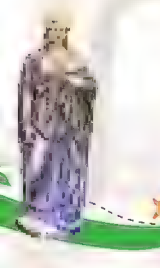
- مَرْحَبًا زِنُوبْيَا.

وَقَالَ لَهَا أَحَدُ الرِّجَالِ مَازِحًا:

- هَلْ تَعْرِفِينَ مَاذَا تَعْنِي بَالْمِيرَا يَا زِنُوبْيَا؟

رَدَّتْ زِنُوبْيَا وَقَالَتْ:

- نَعَمْ.. فَهِيَ تَعْنِي مَدِينَةَ النَّخِيلِ.



عَلَّقَ الرَّجُلُ وَقَالَ:

ـ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ أَطْلَقُوا عَلَيْهَا اسْـــمًا بِمَعْنَى الصِّفَةِ يَا ابْنَتِي، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ اسْمَ الْوَطَنِ، هِيَ تَدْمُرُ.. وَسَتَظَلُّ تَدْمُرَ رَغْمًا عَنْهُمْ.

قَالَتْ فِي جِدِّيَّةٍ:

ـ لَنْ يَحْدُثَ هَذَا إِلَّا إِذَا تَحَرَّرَتْ مِنْ سَيْطَرَةِ الرُّومَانِ عَلَيْهَا.

قَالَتْ هَذَا الْكَلَامَ، وَالْتَفَتَتْ إِلَى أُذَيْنَةَ وَقَالَتْ لَهُ:

ـ هَلْ تَقْبَلُنِي جُنْدِيَّةً فِي جَيْشِ تَحْرِيرِ تَدْمُرَ يَا أُذَيْنَةُ؟

تَوَالَتْ هَمْهَمَاتُ الِاسْتِحْسَـــانِ مِنْ حَنَاجِرِ الرِّجَـــالِ، بَيْنَمَا لَمْ يُفِقْ أُذَيْنَةُ مِنَ الصَّدْمَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ مِمَّا سَـــمِعَ مِنْ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ الْمُتَمَرِّدَةِ الَّتِي حَلَّتْ عَلَيْهِمْ مُتَقَلِّدَةً سَيْفًا كَالْفُرْسَانِ!!

كَانَ أُذَيْنَـــةُ يَعْرِفُ أَنَّ لِعَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ صَبِيَّةً، لَكِنَّـــهُ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهَا بِهَذَا الْجَمَالِ الَّذِي تُزَيِّنُهُ أَسْـــنَانٌ بَيْضَاءُ كَاللُّؤْلُؤِ، وَهَذَا الْعَقْلِ السَّدِيدِ وَتِلْكَ الْحِكْمَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ فَمِهَا بِصَوْتٍ قَوِيٍّ، وَاثِقٍ مِنْ نَفْسِـــهِ، تُزَيِّنُهُ ابْتِسَـــامَةٌ جَمِيلَةٌ. فَرَاحَ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا الْأَسْمَرِ الَّذِي لَوَّحَتْهُ الشَّمْسُ، وَيَتَأَمَّلُ عَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ السَّمْرَاوَيْنِ، وَشَعْرَهَا الْغَزِيرَ الْمُسْتَرْسِلَ خَلْفَهَا يُضْفِي عَلَى أُنُوثَتِهَا بَهَاءً.

أَفَاقَ عَلَى صَوْتِهَا الْقَوِيِّ وَهِيَ تَقُولُ:

ـ مَاذَا تَقُولُ أَيُّهَا الْقَائِدُ؟

وَاجَهَهَا وَهُوَ يَقُولُ:

ـ مَا لَدَيْنَا مِنْ جَيْشٍ مُهِمَّتُهُ حِرَاسَـــةُ أَمْوَالِنَا وَحِمَايَةُ الْقَوَافِلِ فِي رِحْلَاتِهَا بَيْنَ تَدْمُرَ وَالْفُرَاتِ.



وَقَالَ مُؤَكِّدًا:

ـ لَكِنْ مَعًا سَنَبْنِي جَيْشًا جَدِيدًا لِتَحْرِيرِ تَدْمُرَ يَا زِنُوبْيَا.

وَفَجْأَةً سَأَلَهَا قَائِلًا:

ـ هَلْ تَهْوِينَ الصَّيْدَ يَا زِنُوبْيَا؟

أَجَابَتْ بِصَوْتٍ كَالْمُوسِيقَى فِي أُذُنَيْهِ:

ـ نَعَمْ. أَلَا تَعْرِفُ أَنَّنِي تَرَبَّيْتُ هُنَا وَسَطَ أَبْنَاءِ عُمُومَتِي، وَمِنْهُمْ تَعَلَّمْتُ الصَّيْدَ، وَالرَّمْيَ بِالسِّهَامِ وَالرِّمَاحِ مِثْلَ الْفُرْسَانِ؟

زَادَ إِعْجَابُ الرَّجُلِ بِزِنُوبْيَا الَّتِي تَتَفَجَّرُ حَيَوِيَّةً وَقُوَّةً وَذَكَاءً، الْحَالِمَةِ بِحُرِّيَّةِ تَدْمُرَ، وَالَّتِي تُشَارِكُهُ هِوَايَةَ الصَّيْدِ وَالْقَنْصِ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهَا:

ـ لَا بُدَّ أَنْ تَعُودِي إِلَى الْمَدِينَةِ أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ.

ثُمَّ قَالَ بَاسِمًا:

ـ وَأَعِدُكِ.. سَيَكُونُ لَكِ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي تَحْرِيرِ تَدْمُرَ.

صَاحَتْ تَقُولُ:

ـ لَيْسَتْ تَدْمُرَ وَحْدَهَا سَيِّدِي، بَلْ كُلُّ الْأَرْضِ السُّورِيَّةِ.

قَالَ أُذَيْنَةُ بِحَزْمٍ:

ـ سَنُحَرِّرُهَا يَا زِنُوبْيَا؛ حُبًّا لَهَا، وَثَأْرًا لِأَبِي.

ثُمَّ قَالَ فِي رِقَّةٍ:

ـ وَهَيَّا الْآنَ، عُودِي إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَلِّغِي وَالِدَكِ تَحِيَّاتِي.

قَالَتْ زِنُوبْيَا فِي دَلَالٍ:

ـ أَلَنْ تَأْتِيَ لِزِيَارَتِنَا؟

أَجَابَ أُذَيْنَةُ فِي مَرَارَةٍ وَقَالَ:

ـ لَيْسَتْ لِي رَغْبَةٌ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْآنَ.

وَقَفَتْ زِنُوبْيَا، وَعَدَّلَتْ مِنْ مَلَابِسِهَا، وَعَلَّقَتْ سَيْفَهَا فِي حَمَّالَتِهِ وَقَالَتْ:

ـ لَا يَصِحُّ أَنْ تُقَاطِعَ عَشِيرَتَكَ سَيِّدِي، وَلَا يَجِبُ أَنْ تَحْرِمَ وَطَنَكَ مِنْكَ.

لَمْ تَنْتَظِرْ زِنُوبْيَا رَدَّ أُذَيْنَةَ، وَوَدَّعَتِ الرِّجَالَ وَقَفَزَتْ إِلَى ظَهْرِ حِصَانِهَا وَانْطَلَقَتْ بِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَظَلَّ أُذَيْنَةُ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الرِّجَالِ يُتَابِعُونَهَا بِعُيُونٍ مُنْدَهِشَةٍ حَتَّى غَابَتْ عَنْ أَنْظَارِهِمْ، وَعَادُوا إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ يَتَحَدَّثُونَ وَيَتَشَاوَرُونَ فِي كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ جَيْشِ حَرْبٍ قَوِيٍّ لِتَدْمُرَ، حَتَّى يَبْدَأَ أُذَيْنَةُ رِحْلَةَ تَحْرِيرِ أَرْضِ سُورِيَا مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومَانِ. وَهُوَ يَحْلُمُ بِزِنُوبْيَا بِجِوَارِهِ.

٦



وَاصَلَ جَوَادُ زِنُوبْيَا طَيَّ الْأَرْضِ تَحْتَ حَوَافِرِهِ فِي طَرِيقِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ فَارِسَتُهُ تُحَاوِلُ أَنْ تَطْرُدَ خَيَالَ أُذَيْنَةَ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيْهَا، وَأَلَّا تَسْمَعَ صَوْتَهُ الْوَاثِقَ وَهُوَ يُحَدِّثُ رُؤَسَاءَ قَبَائِلِ الْبَادِيَةِ عَنْ حُلْمِهِ بِتَدْمُرَ الْمُحَرَّرَةِ مِنْ سُلْطَانِ الرُّومِ، وَعَنْ أَرْضِ سُورِيَا الْحُرَّةِ.

لَمْ تَجِدْ زِنُوبْيَا فِي تَدْمُرَ كُلِّهَا رَجُلًا يَتَمَتَّعُ بِشَخْصِيَّةٍ جَذَّابَةٍ مِثْلَ أُذَيْنَةَ، يَحْمِلُ بَيْنَ أَضْلُعِهِ قَلْبًا لَا يَعْرِفُ الْخَوْفَ؛ فَهُوَ يُوَاجِهُ الْأُسُودَ وَالْفُهُودَ وَالذِّئَابَ وَلَا يَسْتَرِيحُ إِلَّا بِاصْطِيَادِهَا، وَفِي رَأْسِهِ عَقْلٌ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ، وَيَجْعَلَهُمْ يَحْلُمُونَ حُلْمَهُ نَفْسَهُ، ثَائِرٌ يَمْتَلِكُ رُوحًا تَحْلُمُ بِتَدْمُرَ حُرَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ تَسْعَى لِلتَّقَدُّمِ وَالرُّقِيِّ، قَالَتْ لَهَا نَفْسُهَا:

ـ أُذَيْنَةُ يَحْلُمُ نَفْسَ حُلْمِكِ يَا زِنُوبْيَا.

أَرْخَتْ يَدَا زِنُوبْيَا الْعِنَانَ لِجَوَادِهَا، فَخَفَضَ سُرْعَتَهُ تَدْرِيجِيًّا حَتَّى صَارَ يَتَبَخْتَرُ فِي مِشْيَتِهِ، انْتَظَرَ أَنْ تَأْمُرَهُ فَارِسَتُهُ بِالْعَدْوِ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَسْتَرْجِعُ كَلِمَاتِ الْإِعْجَابِ الَّتِي قَالَهَا أُذَيْنَةُ فِي تَحَفُّظٍ أَمَامَ رُؤَسَاءِ قَبَائِلِ الْبَادِيَةِ، لَكِنَّ أُنُوثَتَهَا الْمُبَكِّرَةَ الْمُتَفَجِّرَةَ بِالْحَيَاةِ شَعَرَتْ بِهَا بِقُوَّةٍ، فَصَاحَتْ تَقُولُ فِي نَشْوَةٍ:

ـ هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي سَأُحَقِّقُ بِهِ طُمُوحِي.





ثُمَّ قَالَتْ لِنَفْسِهَا:

ـ رَجُلٌ مِثْلُ هَذَا لَا يَجِبُ أَبَدًا أَنْ يَظَلَّ بَعِيدًا عَنْ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ.

فِي عُنْفٍ مُفَاجِئٍ، لَوَتْ عِنَانَ جَوَادِهَا تَأْمُرُهُ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْبَادِيَةِ، اسْتَجَابَ الْجَوَادُ لِرَغْبَتِهَا، وَدُونَ أَنْ تَأْمُرَهُ، عَادَ لِسُرْعَتِهِ الَّتِي يَصِيرُ بِهَا كَالسَّهْمِ يَخْتَرِقُ الْهَوَاءَ، وَذَهَبَ إِلَى حَيْثُ كَانَ أُذَيْنَةُ مَعَ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ، فَلَمْ تَجِدْ زِنُوبْيَا أَحَدًا، قَادَتْهُ زِنُوبْيَا إِلَى حَيْثُ تَعْرِفُ أَيْنَ يُقِيمُ. وَحِينَ وَصَلَتْ إِلَيْهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهَا عَنْ سَبَبِ عَوْدَتِهَا، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ فَرِحَ بِرُؤْيَتِهَا، فَاجَأَتْهُ بِالسُّؤَالِ وَقَالَتْ لَهُ:

ـ أَلَمْ يَدْفَعْ وَالِدُكُمَا حَيَاتَهُ ثَمَنًا لِاسْتِقْلَالِ تَدْمُرَ؟

قَالَ أُذَيْنَةُ فِي مَرَارَةٍ وَحُزْنٍ:

ـ اغْتَالَهُ رُوفِينُوسُ الْخَائِنُ.

قَالَتْ مُؤَكِّدَةً:

ـ بَلْ قُلِ اغْتَالَهُ قَيْصَرُ رُومَا. أَلَنْ تَأْخُذَ بِثَأْرِهِ وَثَأْرِ تَدْمُرَ مِمَّنْ قَتَلُوهُ؟

صَمَتَتْ قَلِيلًا لِتُعْطِيَ الْفُرْصَةَ لِأُذَيْنَةَ لِيُفَكِّرَ فِيمَا قَالَتْ، ثُمَّ اسْتَطْرَدَتْ تَسْتَفِزُّهُ وَقَالَتْ لَهُ:

ـ كُلُّ الَّذِي فَعَلْتَهُ هُوَ أَنَّكَ اعْتَزَلْتَ حَيَاةَ الْمَدِينَةِ وَجِئْتَ لِتَعِيشَ فِي الْبَادِيَةِ!

قَالَ أُذَيْنَةُ مُصَحِّحًا:

ـ أَنَا لَمْ أَعْتَزِلِ الْحَيَاةَ أَيَّتُهَا الثَّائِرَةُ الْجَمِيلَةُ، أَنَا احْتَرَمْتُ قَرَارَ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، الَّذِي نَفَّذَ قَانُونَ الْعُرْفِ السَّائِدِ عَلَيْنَا.

صَمَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ شَارِحًا:

ـ الِابْنُ الْأَكْبَرُ هُوَ الْوَحِيدُ صَاحِبُ الْحَقِّ فِي الْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِيِّ وَالِدِهِ يَا زِنُوبْيَا. تَرَكْتُ لِأَخِي خَيْرَانَ الْحُكْمَ حَتَّى لَا نَخْتَلِفَ، وَجِئْتُ هُنَا أَبْنِي جَيْشَ تَدْمُرَ

الْقَوِيَّ الَّذِي سَـــيُحَرِّرُهَا وَيَأْخُذُ بِثَأْرِ أَبِي. وَقَدْ رَأَيْتِ بِنَفْسِكِ رُؤَسَاءَ الْقَبَائِلِ وَهُمْ يَتَعَاهَدُونَ عَلَى تَحْرِيرِ الْوَطَنِ.

سَأَبْنِي جَيْشَ تَدْمُرَ الْقَوِيَّ الَّذِي سَـــيَحْمِي حُرِّيَّتَهَا هُنَا فِي هَذِهِ الْبَادِيَةِ الَّتِي يَعِيشُ عَلَى أَرْضِهَا أَعْظَمُ نَبَّالِي وَقَوَّاسِي الدُّنْيَا كُلِّهَا.

قَالَتْ زِنُوبْيَا وَهِيَ حَالِمَةٌ:

ـ آمُلُ أَلَّا يَخْدُمُوا فِي جَيْشِ الرُّومِ ثَانِيَةً.

رَدَّ أُذَيْنَةُ فِي جِدِّيَّةٍ:

ـ لَنْ يَنْضَمَّ تَدْمُرِيٌّ إِلَى جَيْشِ الرُّومِ يَا جَمِيلَةَ الثَّائِرِينَ، لَا تَقْلَقِي.

قَالَتْ تُعْلِنُ عَنْ رَغْبَتِهَا:

ـ لَنْ يَزُولَ قَلَقِي إِلَّا إِذَا عُدْتَ مَعِي إِلَى الْمَدِينَةِ، وَجَلَسْتَ عَلَى كُرْسِيِّكَ فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ.

اسْـــتَطَاعَتْ زِنُوبْيَا أَنْ تُقْنِعَ أُذَيْنَةَ بِضَرُورَةِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَعَادَ يُشَارِكُ الْقَادَةَ وَالشُّيُوخَ شُـــئُونَ الْحُكْمِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَبْتَعِدْ قَطُّ عَنِ الْبَادِيَةِ وَرِجَالِهِ الَّذِينَ يُعِدُّهُمْ لِتَحْرِيرِ الْوَطَنِ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى تَدْمُرَ بَطِيئَةً مِثْلَ لَيَالِي الشِّتَاءِ تَحْتَ قِيَادَةِ خَيْرَانَ.

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى مَاتَ خَيْرَانُ.

وَلِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ.. يَخْلُو عَرْشُ تَدْمُرَ مِنْ صَاحِبِهِ.

وَصَارَ عَلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ أَنْ يَجْتَمِعَ لِاخْتِيَارِ رَئِيسِهِمُ الْجَدِيدِ.

وَأَسْرَعَتْ زِنُوبْيَا إِلَى وَالِدِهَا عَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ عُضْوِ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ تُحَرِّضُهُ عَلَى اخْتِيَارِ أُذَيْنَةَ رَئِيسًـــا لَهُمْ؛ فَهُوَ رَجُلٌ ذَكِيٌّ، رَقِيقُ الْإِحْسَـــاسِ، يَحْمِلُ قَلْبًا

لَا يَعْـــرِفُ الْخَوْفَ، وَلَهُ طُمُوحَاتٌ كَبِيرَةٌ فِي اسْـــتِقْلَالِ تَدْمُرَ وَحُرِّيَّتِهَا، كَمَا أَنَّهُ يَحْمِلُ فِي دَاخِلِهِ كَرَاهِيَةً لِلرُّومَانِ لِقَتْلِهِمْ أَبَاهُ، وَقَدِ الْتَفَّ حَوْلَهُ شُـــجْعَانُ الْبَادِيَةِ وَفُرْسَانُهَا، لِمَا رَأَوْا فِيهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْبُطُولَةِ، وَقَدْ عَاهَدُوهُ عَلَى تَأْيِيدِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ حَتَّى يُحَقِّقَ هَدَفَهُ.

وَرَاحَ عَمْرُو بْنُ الظَّرِبِ إِلَى مَجْلِسِ الشُّـــيُوخِ، وَخَالَفُوا جَمِيعًا كُلَّ التَّقَالِيدِ.. وَتَحَقَّقَ حُلْمُ زِنُوبْيَا.

وَصَارَ أُذَيْنَةُ رَئِيسًا لِمَجْلِسِ الشُّيُوخِ، وَرَئِيسَ تَدْمُرَ، وَلَمْ تَشْغَلْهُ مَهَامُّ مَنْصِبِهِ الْجَدِيدِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي زِنُوبْيَا، تِلْكَ الصَّبِيَّةِ الْعَبْقَرِيَّةِ الثَّائِرَةِ الْحَالِمَةِ نَفْسَ حُلْمِهِ، وَقَرَّرَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا فِي عُمْرِ ابْنِهِ.

رَاحَ أُذَيْنَةُ إِلَى مَعْبَدِ الْإِلَهِ بل، وَصَلَّى فِي مِحْرَابِهِ، وَتَوَسَّـــلَ إِلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ عَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ تُوَافِـــقُ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْهُ، وَخَرَجَ مِنَ الْمَعْبَدِ قَاصِدًا قَصْرَ وَالِدِ عَرُوسِهِ. وَأَخَذَ مَعَهُ هَدَايَا مِنْ جُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْأَقْرَاطِ وَالْعُقُودِ وَالْأَسَاوِرِ الذَّهَبِيَّةِ الْمُرَصَّعَةِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَأَخَذَ مَعَهُ أَيْضًا قِلَادَةً مِنَ الزُّمُرُّدِ وَالْيَاقُوتِ، وَقَالَ لِوَالِدِهَا:

ـ هَلْ تَسْمَحُ بِأَنْ تُعْطِيَنِي ابْنَتَكَ لِلزَّوَاجِ مِنْهَا؟

أَجَابَ الْأَبُ وَقَالَ:

ـ لَا بُدَّ مِنْ سُؤَالِهَا أَوَّلًا.

تَرَكَ الْأَبُ ضَيْفَهُ وَرَاحَ لِابْنَتِهِ يُخْبِرُهَا بِطَلَبِ أُذَيْنَةَ يَدَهَا.

لَمْ تَعْتَرِضْ زَيْنَبُ عَلَى خِطْبَةِ أُذَيْنَةَ لَهَا.

فِي دَاخِلِهَا كَادَتْ تَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ. وَأَجَابَتْ بِالْقَبُولِ؛ فَقَدْ جَمَعَهَا بِهَذَا الرَّجُلِ

وَحْدَةُ تَفْكِيرٍ وَمَشَــاعِرَ وَأَهْدَافٍ وَآمَالٍ، وَفِي دَاخِلِهِمَا مَعًا حُبٌّ مُتَأَصِّلٌ لِلْوَطَنِ، وَشُعُورٌ قَوْمِيٌّ يَتَأَجَّجُ فِي صَدْرَيْهِمَا، يَدْفَعُهُمَا مَعًا إِلَى التَّفْكِيرِ بِضَرُورَةِ تَحْرِيرِ الْوَطَنِ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ.

وَعَادَ الْأَبُ إِلَى ضَيْفِهِ، وَقَالَ لَهُ فَرِحًا:

ـ أُعْطِيكَ ابْنَتِي الْغَالِيَةَ؛ فَإِنَّ هَذَا مَا يُسْعِدُنِي وَيُسْعِدُكَ وَيُسْعِدُهَا.

قَدَّمَ أُذَيْنَةُ خَاتَمًــا مِنَ الذَّهَبِ إِلَى زِنُوبْيَا، وَمَرَّرَهُ فِي بِنْصَرِ يَدِهَا الْيُسْــرَى، وَأَلْبَسَهَا عِقْدًا مِنَ الزُّمُرُّدِ وَالْمُجَوْهَرَاتِ.

صَارَتْ زِنُوبْيَا الْآنَ رَسْمِيًّا مَخْطُوبَةً لِأَمِيرِ الْبِلَادِ. وَيَتَبَقَّى أُسْبُوعَانِ فَقَطْ عَلَى مَوْعِدِ الزِّفَافِ.

وَمُنْذُ الْيَوْمِ التَّالِي مُبَاشَرَةً، انْطَلَقَتْ زِنُوبْيَا فِي أَسْوَاقِ مَدِينَةِ تَدْمُرَ، تَشْتَرِي الْكَثِيرَ مِنَ الْحَرِيرِ الصِّينِيِّ وَالْحُلِيِّ الْفَارِسِيَّةِ وَالْأَقْمِشَــةِ الْهِنْدِيَّةِ وَالْمُجَوْهَرَاتِ الْبَابِلِيَّةِ وَعُقُودِ اللُّؤْلُؤِ وَالْأَكْوَابِ الْمَنْقُوشَةِ وَالزَّهْرِيَّاتِ الْمُلَوَّنَةِ بِأَلْوَانِ قَوْسِ قُزَحَ.

لَمْ تَتْرُكْ زِنُوبْيَا مَحِلًّا إِلَّا دَخَلَتْهُ وَاشْتَرَتْ مِنْهُ.

وَلَمْ تَخْرُجْ زِنُوبْيَا مِنْ مَحِلٍّ إِلَّا وَهِيَ مُحَمَّلَةٌ بِالْهَدَايَا فَوْقَ مَا اشْــتَرَتْ؛ فَقَدْ كَانَتْ مَعْرُوفَةً مِنْ قَبْلُ بِأَنَّهَا ابْنَةُ قَاضِي التُّجَّارِ، وَقَائِدِ الْقَوَافِلِ. وَالْآنَ، صَارَتْ مَخْطُوبَةَ الْأَمِيرِ.

وَفِي صَبَاحِ يَوْمِ الزِّفَافِ. صَحَتِ السَّــاحَةُ الرَّئِيسِيَّةُ لِلْمَدِينَةِ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمُهَنْدِسِــينَ وَالْعُمَّالِ يُزَيِّنُونَ أَرْضِيَّتَهَا وَجُدْرَانَ بُيُوتِهَا بِالسَّــجَّادِ وَالْأَقْمِشَةِ الْحَمْرَاءِ الثَّقِيلَةِ، وَوُضِعَ فِي صَدْرِهَا كُرْسِــيَّانِ كَبِيــرَانِ مُتَجَاوِرَانِ عَلَى مِنَصَّةٍ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِدَرَجَاتٍ مِنَ الْمَرْمَرِ.



أَمَّا فِي الْحَدِيقَةِ الْكَبِيـــرَةِ حَوْلَ نَبْعِ الْمَاءِ، فَقَدْ وُضِعَتِ الْمَوَائِدُ بِجِوَارِ الْجِرَارِ الْكَبِيرَةِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْبُرُونْزِ الْمُزَيَّنَةِ بِعَنَاقِيدِ أَزْهَارِ الْجِيرَانْيُومِ.

وَرَاحَتْ صَدِيقَاتُ الْعَرُوسِ إِلَيْهَا فِي بَيْتِهَا، أَلْبَسُوهَا ثَوْبًا طَوِيلًا أَبْيَضَ اللَّوْنِ عَارِيَ الْعُنُقِ وَالذِّرَاعَيْنِ، وَوَضَعُوا وِشَـــاحًا عَلَى شَعْرِهَا، ثُمَّ وَضَعُوا عَلَى رَأْسِهَا تَاجًا مِنْ زُهُورِ الْبُرْتُقَالِ.

وَأَخِيرًا صَحِبَهَا وَالِدُهَا إِلَى سَاحَةِ الِاحْتِفَالِ.

حِينَ دَخَلَتِ الْعَرَبَةُ الَّتِي تَحْمِلُ الْعَرُوسَ وَوَالِدَهَا إِلَى السَّـــاحَةِ، اسْـــتَقْبَلَهَا الْمَدْعُوُّونَ بِالتَّصْفِيقِ وَالْهُتَافِ، وَتَوَقَّفَتِ الْعَرَبَةُ، وَأَخَذَ أُذَيْنَةُ بِيَدِهَا وَأَنْزَلَهَا إِلَى الْأَرْضِ.

وَقَبْـــلَ أَنْ يَخْطُوَا نَحْوَ الْمِنَصَّةِ، وَعَلَى الدَّرَجَةِ الْأُولَى لِلسُّـــلَّمِ الْمَرْمَرِيِّ، ذَبَحَ الْعَرَّافُ وَاحِدًا مِنَ الْخِرَافِ السَّمِينَةِ، تَحْتَ أَقْدَامِهِمَا.

ثُمَّ وَاصَلَا الصُّعُودَ.

وَقَبْلَ أَنْ يَجْلِسَا عَلَى الْكُرْسِيَّيْنِ الْكَبِيرَيْنِ الْمُذَهَّبَيْنِ، وَقَفَا، وَحَسَبَ التَّقَالِيدِ، أَمْسَكَ أُذَيْنَةُ بِيَدَيْهَا، وَنَظَرَ فِي عَيْنَيْهَا وَسَأَلَهَا قَائِلًا:

ـ مَنْ أَنْتِ؟

وَحَسَبَ التَّقَالِيدِ أَيْضًا، رَدَّتْ زِنُوبْيَا وَقَالَتْ:

ـ أَنَا زَوْجَتُكَ. أَيْنَمَا تَكُونُ أَنْتَ، أَكُونُ أَنَا.

هَكَذَا صَـــارَ أُذَيْنَةُ وَزِنُوبْيَا زَوْجَيْنِ، وَارْتَفَعَـــتْ صَيْحَاتُ التَّهَانِي مِنَ الْأَهْلِ وَالْأَصْدِقَـــاءِ، وَتَوَاصَلَتِ الِاحْتِفَالَاتُ بِهِمَا حَتَّى اللَّيْلِ. فَسَـــارَا فِي مَوْكِبٍ يَتَقَدَّمُهُ حَمَلَةُ الْمَشَاعِلِ وَعَازِفُو الْأَبْوَاقِ وَضَارِبُو الطُّبُولِ، إِلَى قَصْرِ أُذَيْنَةَ.

وَعَلَى بَابِ الْقَصْرِ، كَانَ الْعَدِيدُ مِنَ الْخَدَمِ وَعَازِفِي الْأَبْوَاقِ وَحَمَلَةِ الْمَشَاعِلِ فِي انْتِظَارٍ.

وَحِينَ وَصَلَ الْعَرُوسَانِ إِلَى الْبَابِ الْكَبِيرِ، حَمَلَ أُذَيْنَةُ زَوْجَتَهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَتَخَطَّى بِهَا عَتَبَةَ الْبَهْوِ؛ حَتَّى لَا تَلْمِسَهَا قَدَمَاهَا، ثُمَّ أَنْزَلَهَا إِلَى الْأَرْضِ وَقَدَّمَ لَهَا طَبَقًا مِنَ الْفِضَّةِ مَنْقُوشًا بِرُسُومٍ عَرَبِيَّةٍ، وَعَلَيْهِ مِفْتَاحُ قَصْرِهِ وَبَعْضُ الْقِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ، ثُمَّ قَدَّمَ لَهَا كَأْسًا مِنَ الْمَاءِ الطَّهُورِ.

وَكَالْعَادَةِ..

سَكَبَتْ زِنُوبْيَا كَأْسَ الْمَاءِ عَلَى مَلَابِسِهِمَا طَرْدًا لِلْأَرْوَاحِ الشِّرِّيرَةِ.

بَعْدَ ذَلِكَ، جَاءَ أَحَدُ الْخَدَمِ بِمِشْعَلٍ صَغِيرٍ، وَسَارَ أَمَامَهُمَا يُضِيءُ لَهُمَا الطَّرِيقَ، وَسَارَا خَلْفَهُ مُتَجَاوِرَيْنِ، ثُمَّ صَعِدَا مَعًا الدَّرَجَ الرُّخَامِيَّ لِلْقَصْرِ، وَقَفَا عَلَى بَابِهِ الدَّاخِلِيِّ، اسْتَدَارَا، لَوَّحَا بِأَيْدِيهِمَا لِضُيُوفِهِمَا الَّذِينَ ظَلُّوا يُلَوِّحُونَ لَهُمَا حَتَّى غَابَا عَنْ أَعْيُنِهِمْ دَاخِلَ الْقَصْرِ، وَبَدَءُوا يُغَادِرُونَ الْمَكَانَ وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُمَا بِالسَّعَادَةِ.

شَخْصَانِ فَقَطْ لَمْ يَعْرِفَا السَّعَادَةَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

أَوَّلُهُمَا: كَانَ هيرُوديس بْنَ أُذَيْنَةَ مِنْ زَوْجَتِهِ الْأُولَى، وَالَّذِي لَمْ يُحِبَّ زِنُوبْيَا، لَيْسَ لِأَنَّهَا أَخَذَتْ مَكَانَ أُمِّهِ فِي قَلْبِ أَبِيهِ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ أُمَّهُ قَدْ مَاتَتْ بَعْدَ وِلَادَتِهِ، إِنَّمَا خَوْفًا عَلَى الْعَرْشِ الَّذِي حَلَمَ أَنْ يَرِثَهُ يَوْمًا مَا.

وَثَانِيهُمَا هُوَ مُعَنَّى بْنُ خَيْرَانَ الَّذِي كَرِهَ عَمَّهُ بَعْدَ أَنْ ظَنَّ أَنَّهُ اغْتَصَبَ حُكْمَ تَدْمُرَ، وَاضْطُرَّ لِلصَّمْتِ احْتِرَامًا لِقَرَارِ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، لَكِنَّ الْمَرَارَةَ عَشَّشَتْ فِي قَلْبِهِ، وَظَلَّ يَحْلُمُ هُوَ الْآخَرُ بِكُرْسِيِّ الْإِمَارَةِ.



٧



ظَلَّ الزَّوْجَانِ حَبِيسَــــي الْقَصْرِ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، يَنْهَــــلَانِ مِنْ نَهْرِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، تَرْوِي فِيهِ الصَّبِيَّةُ حَيَاةَ الرَّجُلِ الَّتِي تَشَقَّقَتْ مِنَ الظَّمَأ، وَتَزْرَعُ فِيهِ طُمُوحَهَا بِتَحْرِيرِ الْأَرْضِ مِمَّنْ عَلَيْهَا مِنْ مُحْتَلٍّ، وَتَدْفَعُهُ لِأَنْ يَخْرُجَ لِيُنَفِّذَ وَعْدَهُ، فَالرِّجَالُ الَّذِينَ شَارَكُوهُ حُلْمَهُ وَعَاهَدُوهُ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ عَلَى تَحْقِيقِهِ فِي انْتِظَارٍ.

لَكِنَّ أُذَيْنَةَ وَعَى الــــدَّرْسَ جَيِّدًا، فَقَدْ قَتَلَ الرُّومُ أَبَاهُ حِينَ أَعْلَنَ اسْــــتِقْلَالَ تَدْمُرَ، وَأَغْدَقُوا عَلَى أَخِيهِ بِالْأَلْقَابِ حِينَ أَعْلَنَ وَلَاءَهُ لَهُمْ، فَقَرَّرَ أَلَّا يُعْلِنَ عَنْ نِيَّتِهِ بِاسْــــتِقْلَالِ تَدْمُرَ وَتَحْرِيرِ الْأَرْضِ السُّورِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرَاهُ مُنَاسِبًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ فِيهِ الرُّومَانُ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا، وَحِينَ سَأَلَتْهُ زِنُوبْيَا مُتَهَكِّمَةً وَقَالَتْ:

- وَمَتَى يَحِينُ هَذَا الْوَقْتُ يَا سَيِّدَ تَدْمُرَ؟

رَدَّ قَائِلًا فِي هُدُوءٍ عَاقِلٍ:

- حِينَ أَصِلُ بِالْجَيْشِ التَّدْمُرِيِّ إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي تَقْهَرُ أَيَّ عَدُوٍّ تُوَاجِهُهُ.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا يَتَفَحَّصُ خَلَجَاتِ وَجْهِهَا الْغَاضِبِ وَقَالَ:

- الْحُرِّيَّةُ بِدُونِ قُوَّةٍ تَحْمِيهَا تَضِيعُ، وَالْحَقُّ بِدُونِ قُوَّةٍ تُسَانِدُهُ لَا يَعُودُ، وَالْحُلْمُ بِدُونِ قُوَّةٍ تُحَقِّقُهُ كَابُوسٌ يَجْثُمُ عَلَى الْقُلُوبِ.

وَبَدَأَ فِي مُهَادَنَةِ الرُّومِ.



أَرْسَـــلَ إِلَى فاليريان قَيْصَرِ رُومَا رِسَـــالَةً يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَقْتَصَّ لِوَالِدِهِ مِنْ روفينـــوس الْقَاتِلِ الْهَارِبِ إِلَيْهِ. وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ سَـــيُهْمِلُهَا وَلَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، وَلَنْ يَفْعَلَ شَـــيْئًا، فَهُوَ يَعْرِفُ جَيِّدًا أَنَّ فاليريان لَنْ يُؤَدِّبَ عَصَاهُ، لَكِنَّهَا فِي النِّهَايَةِ.. رِسَالَةٌ تُطَمْئِنُهُ مِنْ نَاحِيَتِهِ، وَتَجْعَلُ فِكْرَهُ يَتَفَرَّغُ لِلصِّرَاعِ مَعَ الْفُرْسِ.

وَاشْـــتَدَّتِ الْقَلَاقِلُ وَالصِّرَاعَاتُ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ عَلَى الْأَرْضِ السُّـــورِيَّةِ، وَتَحَوَّلَتْ إِلَى قِتَالٍ قَادَهُ فاليريان بِنَفْسِـــهِ، الَّـــذِي أَرَادَ أَنْ يَحْتَلَّ مَدِينَةَ الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ الَّتِي بَنَوْهَا عَلَى الْفُرَاتِ، وَالْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي (الرُّهَا)، وَاقْتَتَلَا قِتَالًا شَدِيدًا انْتَصَرَ فِيهِ الْفُرْسُ عَلَى الرُّومَانِ، وَأَخَذُوا قَيْصَرَهُمْ فاليريان أَسِيرًا.

شَـــعَرَ أُذَيْنَةُ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ، فَهَاهُمُ الرُّومُ مَهْزُومُونَ، وَقَيْصَرُهُمْ أَسِيرٌ فِي أَيْدِي الْفُرْسِ، فَلِمَاذَا لَا يَلْجَأُ إِلَى الْقُـــوَّةِ الْمُنْتَصِرَةِ، يُحَالِفُهَا حَتَّى يَأْمَنَ غَدْرَهَا حِينَ يُعْلِنُ اسْـــتِقْلَالَهُ عَنِ الرُّومَانِ، وَإِقَامَةَ دَوْلَتِهِ بَيْـــنَ الدَّوْلَتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ الْمُتَصَارِعَتَيْنِ دَوْمًا؟ فَكَتَبَ رِسَالَةً إِلَى الْمَلِكِ الْفَارِسِيِّ سَابُورَ، يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ وَيُعْلِنُ رَغْبَتَهُ فِي مُصَالَحَتِهِ، وَيَعْرِضُ أَنْ يَكُونَ حَلِيفًا لَهُ، وَأَرْسَـــلَهَا مَعَ عَدَدٍ مِنْ رِجَالِهِ بَعْدَ أَنْ حَمَّلَهُمْ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْهَدَايَا.

حِينَ وَصَلَ الرُّسُلُ إِلَى مُعَسْكَرِ الْمَلِكِ سَابُورَ، وَسَمَحَ لَهُمُ الْحُجَّابُ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ، قَدَّمُوا لَهُ الرِّسَالَةَ وَالْهَدَايَا، فَرَاحَ يَقْرَأُ مَا كَتَبَ أُذَيْنَةُ.

فَجْأَةً، انْفَجَرَ سَابُورُ ضَاحِكًا فِي سُخْرِيَةٍ وَغَطْرَسَةٍ وَكِبْرِيَاءٍ، وَقَالَ:

ـ مَنْ يَكُونُ أُذَيْنَةُ هَذَا حَتَّى يَتَجَاسَرَ وَيُخَاطِبَ سَيِّدَهُ مَلِكَ الْمُلُوكِ؟!

رَدَّ وَاحِدٌ مِنَ الرُّسُلِ وَقَالَ:

ـ إِنَّهُ مَلِكُ تَدْمُرَ.



سَيْطَرَ سَابُورُ عَلَى نَفْسِهِ وَقَالَ:

ـ آاا.. تِلْكَ الْمَدِينَةُ الْقَاحِلَةُ فِي الصَّحْرَاءِ.

ثُمَّ صَاحَ فِيهِمْ قَائِلًا:

ـ كَيْفَ يَتَجَاسَرُ وَيُخَاطِبُنِي كَمَا لَوْ كَانَ نِدًّا لِي؟!

وَارْتَفَعَ صَوْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ:

ـ قَسَمًا بِالنَّارِ الْمُقَدَّسَةِ لَأُعَاقِبَنَّهُ عِقَابًا يُنْسِيهِ يَوْمَ مَوْلِدِهِ!

ثُمَّ قَالَ نَاصِحًا:

ـ وَإِذَا كَانَ لَهُ أَمَلٌ فِي عُقُوبَةٍ خَفِيفَةٍ، فَلْيَأْتِ إِلَيَّ وَيَدَاهُ مَغْلُولَتَانِ إِلَى ظَهْرِهِ!

وَتَغَيَّرَتْ حِدَّةُ صَوْتِهِ، وَصَاحَ مُهَدِّدًا:

ـ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيَعْلَمْ بِأَنِّي سَأُهْلِكُهُ، وَأُهْلِكُ أَهْلَهُ، وَأُنْزِلُ الدَّمَارَ بِمَدِينَتِهِ.

وَمَزَّقَ سَابُورُ الرِّسَالَةَ، وَرَمَى بِالْهَدَايَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ.

خَرَجَ رُسُلُ أُذَيْنَةَ مِنْ عِنْدِ سَابُورَ وَهُمْ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ وَالْخَسَارَةِ، خَائِفِينَ مِمَّا قَدْ يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ الطَّائِشُ الْمَغْرُورُ مِنْ عَمَلٍ تِجَاهَ مَدِينَتِهِمُ الَّتِي خَسِرَتِ الرُّومَانَ وَلَمْ تَفُزْ بِصَدَاقَةِ الْفُرْسِ.

وَعَادَ الْوَفْدُ إِلَى أُذَيْنَةَ، وَأَخْبَرُوهُ بِمَا حَدَثَ، فَهَبَّ وَاقِفًا وَهُوَ يَصِيحُ وَيَقُولُ:

ـ إِذَنْ هِيَ الْحَرْبُ لِتَأْدِيبِ ذَلِكَ الطَّائِشِ الْمُتَغَطْرِسِ.

ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَى فَرَسِهِ، وَانْطَلَقَ يُسَابِقُ الرِّيحَ ذَاهِبًا إِلَى الْبَادِيَةِ، إِلَى أَهْلِهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُ وَيُنَاصِرُونَهُ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْقَبَائِلِ حَوْلَ تَدْمُرَ، يُنَادِيهِمْ لِيَهُبُّوا دِفَاعًا عَنْ كَرَامَتِهِمْ، فَأَسْرَعَتْ كُلُّ الْقَبَائِلِ لِتَلْبِيَةِ النِّدَاءِ، وَأَرْسَلُوا فُرْسَانَهُمْ وَمُقَاتِلِيهِمْ، وَصَارَ عِنْدَ أُذَيْنَةَ جَيْشٌ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ بِالسَّيْفِ وَرُمَاةِ السِّهَامِ وَالنِّبَالِ الَّذِينَ لَا يُخْطِئُونَ

هَدَفًا أَبَدًا، جَمِيعُهُمْ عَلَى اسْـــتِعْدَادٍ لِلْمَوْتِ مِنْ أَجْلِ الْكَرَامَةِ الْعَرَبِيَّةِ. جَيْشٌ يَقُولُ لِلْأَعْدَاءِ فُرْسًا كَانُوا أَوْ رُومَانًا، إِنَّ لِلْعَرَبِ قُوَّةً يَجِبُ أَنْ تُحْتَرَمَ، وَأَنَّهُمْ نِدٌّ لِكُلِّ الْقُوَى الْمَوْجُودَةِ فِي الْعَالَمِ.

وَلَمْ يَكْتَفِ أُذَيْنَةُ بِمُقَاتِلِي الْقَبَائِلِ، لَكِنَّهُ لَمْلَمَ جُنُودَ جَيْشِ فاليريان الْمُنْهَزِمِ، وَأَعَادَ إِلَيْهِمْ ثِقَتَهُمْ بِأَنْفُسِـــهِمْ، فَعَادَتْ إِلَيْهِمْ قُدْرَتُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَكَوَّنَ مِنْهُمْ فِرْقَةً ضَمَّهَا إِلَى جَيْشِهِ.

وَضَعَ أُذَيْنَةُ ابْنَهُ هيروديس قَائِـــدًا عَامًّا لِلْجَيْشِ، وَجَعَلَ ابْنَ عَمِّهِ زَبْدَا قَائِدًا لِلْفُرْسَـــانِ، أَمَّا رُمَاةُ السِّهَامِ وَالنَّبَّالُونَ وَالْقَوَّاسُونَ فَقَدْ جَعَلَهُمْ تَحْتَ قِيَادَةِ ابْنِ عَمِّهِ الثَّانِي زَبْدَاي.

وَقَبْلَ أَنْ يَسِيرَ بِجَيْشِهِ إِلَى الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ؛ لِتَأْدِيبِ مَلِكِهَا الْمُتَغَطْرِسِ، وَتَحْرِيرِ مَا يَحْتَلُّهُ مِنَ الْأَرْضِ الْعَرَبِيَّةِ، أَنَابَ زِنُوبْيَـــا فِي الْحُكْمِ، لِتَقُومَ بِرِعَايَةِ تَدْمُرَ فِي غِيَابِهِ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهَا سَـــتَتَوَلَّى ذَلِكَ بِمَهَارَةٍ وَاقْتِدَارٍ؛ فَهِيَ ذَاتُ رَأْيٍ وَحِكْمَـــةٍ، وَعَقْلٍ وَسِيَاسَةٍ، وَدِقَّةِ نَظَرٍ وَشِدَّةِ بَأْسٍ.



وَبَيْنَمَا هُوَ في الطَّرِيقِ لِحَرْبِ سَـــابُورَ وَتَأْدِيبِهِ، وَرَدَتْ إِلَيْهِ أَخْبَارٌ تَقُولُ إِنَّ الْقَائِدَ الرُّومَانِيَّ كاليســـتوس قَدْ تَغَلَّبَ عَلَى الْفُرْسِ، وَأَنَّ جُنُودَهُمْ يَهْرُبُونَ مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ.

وَحَانَتْ فُرْصَـــةُ أُذَيْنَةَ لِلْقَضَاءِ عَلَى جَيْشِ الْفُـــرْسِ وَتَحْرِيرِ الْأَرْضِ؛ فَغَيَّرَ اتِّجَاهَهُ وَأَسْرَعَ لِمُلَاقَاةِ فُلُولِ جَيْشِ الْفُرْسِ وَشَتَاتِهِمْ، وَأَدْرَكَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْبُرُوا الْفُرَاتَ نَاجِينَ بِحَيَاتِهِمْ إِلَى مُسْتَعْمَرَتِهِم بَيْنَ النَّهْرَيْنِ.

وَعَلَى ضِفَافِ الْفُرَاتِ، الْتَقَى الْجَيْشَـــانِ في مَعْرَكَةٍ عَنِيفَةٍ انْتَصَرَ فِيهَا أُذَيْنَةُ انْتِصَارًا كَبِيرًا، وَهَرَبَ سَـــابُورُ مَعَ فُلُولِ جَيْشِـــهِ عَبْرَ النَّهْرِ، تَارِكِينَ أَمْوَالَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ غَنِيمَةً في أَيْدِي التَّدْمُرِيِّينَ.



اسْــــتَقْبَلَتْ زِنُوبْيَا مَلِيكَهَا الْمُنْتَصِرَ اسْـــتِقْبَالَ الْأَبْطَالِ.. وَتَزَيَّنَتِ الشَّوَارِعُ بِالرَّايَاتِ وَالْوُرُودِ، وَقُرِعَتِ الطُّبُولُ، وَامْتَلَأَتِ السَّاحَاتُ بِالرَّاقِصِينَ وَالْمُهَنِّئِينَ، وَنُحِرَتِ الذَّبَائِحُ فِي مَحَارِيبِ الْمَعَابِدِ، وَأَكَلَ كُلُّ مَنْ لَهُ رُوحٌ حَتَّى شَـــبِعَ، وَنُثِرَتِ الْعُمْلَاتُ الْمَعْدِنِيَّةُ فَوْقَ رُءُوسِ النَّاظِرِينَ.

حِينَ بَلَغَ قَيْصَرَ رُومَا انْتِصَارُ أُذَيْنَةَ الْمُبْهِرُ عَلَى سَـــابُورَ، فَرِحَ فَرَحًا عَظِيمًا لِانْكِسَـــارِ عَدُوِّهِ، لَكِنَّهُ قَلِقَ لِظُهُورِ قَائِدٍ عَرَبِيٍّ قَوِيٍّ، لَكِنَّهُ أَرْسَـــلَ إِلَيْهِ يُهَادِنُهُ، وَيُهَنِّئُهُ بِالْفَوْزِ، وَيُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ قَدْ مَنَحَهُ لَقَبَ إِمْبِرَاطُورِ الشَّـــرْقِ، وَالْقَائِدِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ الْقُوَّاتِ الرُّومَانِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ.

أَيْ أَنَّهُ صَارَ مُسَاوِيًا لِإِمْبِرَاطُورِ رُومَا!!

حِينَ قَرَأَ أُذَيْنَةُ الرِّسَالَةَ لِزِنُوبْيَا، ضَحِكَتْ عَالِيًا وَقَالَتْ:

ـ مَا أَكْثَرَ الْأَلْقَابَ الَّتِي يَخْلَعُهَا الْقَيَاصِرَةُ عَلَى الْعَرَبِ!

يُخَدِّرُونَهُمْ بِهَا، وَيَسْرِقُونَ بِهَا أَوْطَانَهُمْ، وَيَسْتَخْدِمُونَهُمْ فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ وَحِمَايَتِهَا.

رَبَّتَ أُذَيْنَةُ عَلَى يَدِهَا فِي حُبٍّ وَحَنَانٍ، وَقَالَ لَهَا:

ـ لَنْ أَبْتَلِعَ الطُّعْمَ يَاحَبِيبَتِي.

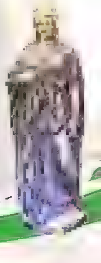
سَأَلَتْهُ:

ـ حَقِيقَةٌ مَا تَقُولُ يَا زَوْجِيَ الْعَزِيزَ؟

قَالَ لَهَا بَاسِمًا:

ـ لَكِنِّي لَنْ أُعْلِنَ رَفْضِيَ الْوَلَاءَ لَهُمْ، سَأُوهِمُهُمْ بِأَنَّنِي قَدِ ابْتَلَعْتُهُ.

هَبَّتْ وَاقِفَةً مُبْتَعِدَةً عَنْهُ وَهِيَ تَقُولُ:



- وَلِمَاذَا الْمُنَاوَرَةُ؟ لِمَاذَا لَا تُوَاجِهُهُمْ وَتَرْفُضُ الْفُتَاتَ الَّذِي يُقَدِّمُونَهُ لَكَ؟

قَالَ أُذَيْنَةُ فِي هُدُوءٍ:

- حَتَّى نُصْبِحَ قَادِرِينَ عَسْكَرِيًّا عَلَى مُوَاجَهَتِهِمْ وَالِانْتِصَارِ عَلَيْهِمْ وَطَرْدِهِمْ مِنْ كُلِّ الْبِلَادِ، وَإِعْلَانِ إِمْبِرَاطُورِيَّتِنَا الْعَرَبِيَّةِ، أَلَيْسَ هَذَا مَا تُرِيدِينَ حَبِيبَتِي؟

عَادَ إِلَى زِنُوبْيَا هُدُوءُهَا، فَعَادَتْ لِتَجْلِسَ بِجِوَارِ زَوْجِهَا، وَهِيَ تَقُولُ لَهُ:

- عِشْتَ لِي وَلِتَدْمُرَ سَيِّدِي.

قَالَ ضَاحِكًا:

- انْتَظِرِي.. إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ شَيْئًا.

انْتَبَهَتْ زِنُوبْيَا جَيِّدًا لِزَوْجِهَا وَهُوَ يَقُولُ لَهَا إِنَّ قَيْصَرَ الرُّومِ يَطْلُبُ مِنْهُ مُوَاصَلَةَ قِتَالِ الْفُرْسِ؛ حَتَّى يُحَرِّرَ لَهُمْ قَيْصَرَهُمُ الْأَسِيرَ.

وَحِينَ انْتَهَى مِنْ قِرَاءَةِ الرِّسَالَةِ قَالَتْ لَهُ:

- أَلَمْ أَقُلْ لَكَ، إِنَّهُمْ يَسْتَخْدِمُونَنَا لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ؟! بِمَاذَا سَتَرُدُّ عَلَيْهِمْ؟

أَجَابَ أُذَيْنَةُ وَقَالَ:

- إِنَّهَا الْخُدْعَةُ حَبِيبَتِي.

ثُمَّ قَالَ مُذَكِّرًا:

- وَهَلْ نَسِيتِ أَنَّ لِي ثَأْرًا مَعَ سَابُورَ، وَلَا بُدَّ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُ؟

هَبَّتْ وَاقِفَةً وَهِيَ تَقُولُ:

- هَذَا الْمُتَغَطْرِسُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ سُلُوكَ الْأَدَبِ، لَا بُدَّ أَنْ تُؤَدِّبَهُ.

صَمَتَ قَلِيلًا مُفَكِّرًا، ثُمَّ قَالَ:

- هَيَّا بِنَا إِلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ.

صَاحَبَ أُذَيْنَةُ زِنُوبْيَا إِلَى مَجْلِسِ الشُّـــيُوخِ، وَحِينَ اعْتَلَى كُرْسِيَّ الرِّئَاسَةِ، قَرَأَ رِسَالَةَ الْقَيْصَرِ عَلَى الْأَعْضَاءِ، وَحِينَ تَلَا عَلَيْهِمْ قَرَارَ الْقَيْصَرِ بِتَنْصِيبِهِ إِمْبِرَاطُورًا لِلشَّرْقِ وَقَائِدًا عَامًّا لِجَمِيعِ الْقُوَّاتِ الرُّومَانِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ. صَاحُوا هَاتِفِينَ:

ـ الْحَيَاةُ لِإِمْبِرَاطُورِ الشَّرْقِ. الْحَيَاةُ لِقَائِدِ الْجُيُوشِ الرُّومَانِيَّةِ فِي الشَّرْقِ.

رَفَعَ أُذَيْنَةُ يَدَيْهِ لِيُسْـــكِتَ الْأَعْضَاءَ الْفَرِحِيـــنَ بِالْأَلْقَابِ، صَمَتُوا جَمِيعًا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَعَادَ الصَّمْتُ إِلَى الْقَاعَةِ، فَقَالَ:

ـ أَنَا لَا يَهُمُّنِي أَلْقَابُ الْقَيْصَرِ، أَنَا مَلِكُ مُلُوكِ الشَّرْقِ! أَنَا مَلِكُ مُلُوكِ الشَّرْقِ!

هَلَّلَ أَعْضَاءُ الْمَجْلِسِ بِالْفَرَحِ، وَصَاحُوا يَدْعُـــونَ بِالْحَيَاةِ لِأُذَيْنَةَ مَلِكِ مُلُوكِ الشَّرْقِ!

لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَسْكَتَهُمْ أُذَيْنَةُ بِإِشَارَةٍ مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ سَاخِرًا:

ـ يَطْلُبُ مِنِّي قَيْصَرُ الرُّومِ أَنْ أُحَارِبَ الْفُرْسَ لِتَخْلِيصِ قَيْصَرِهِمُ الْأَسِيرِ.

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْقَاعَةِ، لَمْ يَدْرِ أَعْضَاءُ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ مَاذَا يَقُولُونَ، وَلَمَّا طَالَ صَمْتُهُمْ، قَالَ أُذَيْنَةُ:

ـ سَأُقَاتِلُ سَابُورَ لِلانْتِقَامِ لِتِلْكَ الْإِهَانَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا لَنَا حِينَ اسْتَهَانَ بِنَا، وَأَهَانَ رُسُلَنَا وَمَزَّقَ رِسَـــالَتِي، وَرَمَى بِهَدَايَايَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَطَلَبَ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ مُقَيَّدَ الْيَدَيْنِ خَلْفَ ظَهْرِي.

صَمَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ:

ـ وَسَأُوهِمُ الرُّومَ أَنَّنِي أُقَاتِلُ لِتَخْلِيصِ قَيْصَرِهِمُ الْأَسِيرِ.

وَافَقَ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ عَلَى خُطَّةِ أُذَيْنَةَ، فَأَمَرَ أُذَيْنَةُ بِاسْتِعْدَادِ الْجَيْشِ لِلتَّحَرُّكِ نَحْوَ الْمَدَائِنِ، وَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ لِيَلْبِسَ لِبَاسَ الْحَرْبِ، وَبَيْنَمَا كَانَتْ زِنُوبْيَا تُسَاعِدُهُ،

لَاحَظَ تَحَرُّكَ الْجَنِينِ الَّذِي في بَطْنِهَا.. رَبَّتَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهَا:

- حِينَ يَأْتِي وَلَدِي إِلَى الدُّنْيَا.. لَا بُدَّ أَنْ تَبْعَثِي إِلَيَّ بِمَنْ يُخْبِرُنِي.

هَزَّتْ زِنُوبْيَا رَأْسَهَا بِالْمُوَافَقَةِ، مَدَّ إِبْهَامَيْهِ وَمَسَحَ دَمْعَتَيْنِ تَرَقْرَقَتَا في عَيْنَيْهَا، وَقَالَ لَهَا:

- لَا تَقْلَقِي.

وَقَبْلَ أَنْ تَرَى دَمْعَتَيْنِ انْسَابَتَا مِنْ عَيْنَيْهِ، انْطَلَقَ خَارِجًا، وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ التَّحَرُّكَ بِجَيْشِهِ نَحْوَ الْفُرْسِ، جَاءَتْهُ الْأَخْبَارُ بِأَنَّ زِنُوبْيَا قَدْ وَضَعَتْ طِفْلًا جَمِيلًا يُشْبِهُ أَبَاهُ، تَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَسْرَعَ إِلَى تَدْمُرَ، أَخَذَ ابْنَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَسْرَعَ بِهِ إِلَى مَعْبَدِ الْإِلَهِ بل، وَفِي الْمِحْرَابِ.. رَفَعَهُ إِلَى أَعْلَى إِعْلَانًا بِأَنَّ هَذَا وَلَدُهُ، وَقَدْ أَسْمَاهُ وَهْبَ اللَّاتِ؛ فَهُوَ هِبَةُ الْآلِهَةِ لَهُ في شَيْخُوخَتِهِ.

عَادَ إِلَى زَوْجَتِهِ، نَاوَلَ الرَّضِيعَ إِلَى مُرْضِعَتِهِ، أَخْبَرَهُمْ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ، وَغَادَرَهُمْ لِيَقُودَ جَيْشَهُ، في طَرِيقِهِ لِقِتَالِ الْفُرْسِ.

وَصَلَ الْجَيْشُ التَّدْمُرِيُّ إِلَى نَصِيبِينَ، لَمْ يَأْخُذْ وَقْتًا حَتَّى قَهَرَ جَيْشَ الْفُرْسِ فِيهَا، قُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وَهَرَبَ مَنْ هَرَبَ، وَصَارَتْ نَصِيبِينُ مَدِينَةً حُرَّةً، تَرَكَ فِيهَا حَامِيَةً لِلدِّفَاعِ عَنْهَا وَانْتَقَلَ إِلَى حَرَّانَ، حَرَّرَهَا مِنْ قَبْضَةِ الْفُرْسِ وَوَاصَلَ سَيْرَهُ إِلَى تَحْقِيقِ مُهِمَّتِهِ الْأَسَاسِيَّةِ وَهِيَ قِتَالُ سَابُورَ وَتَأْدِيبُهُ وَالِاسْتِيلَاءُ عَلَى عَاصِمَتِهِ.

في الطَّرِيقِ إِلَى الْمَدَائِنِ، خَاضَ أُذَيْنَةُ مَعَارِكَ كَثِيرَةً مَعَ الْفُرْسِ، وَحَرَّرَ حَمَاةَ وَحِمْصَ، وَأَنْطَاكِيَةَ وَقَيْصَرِيَّةَ، وَدِمَشْقَ وَالشَّامَ. وَلَمْ يَبْقَ لِسَابُورَ غَيْرُ الْمَدَائِنِ، فَأَسْرَعَ سَابُورُ وَمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنْ جَيْشِهِ إِلَيْهَا، وَتَحَصَّنُوا فِيهَا، وَغَلَّقُوا أَبْوَابَ أَسْوَارِهَا.

وَلَمْ يَجِدْ أُذَيْنَةُ حَلًّا إِلَّا حِصَارَ الْمَدَائِنِ بِجَيْشِهِ، وَنَصَبَ الْمَنْجَنِيقَاتِ وَآلَاتِ الْحَرْبِ الَّتِي يَمْلِكُهَا تِجَاهَهَا، عَلَى أَمَلِ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا.. أَوْ يَخْرُجُوا لِلْقِتَالِ.

انْتَهَزَ الْقُوطُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ وَسَطَ وَجَنُوبَ شَرْقِ آسْيَا، وَيَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ، غِيَابَ أُذَيْنَةَ عَنْ تَدْمُرَ، وَطَمِعُوا فِيهَا لِثَرَائِهَا، وَقَرَّرُوا أَنْ يَحْتَلُّوهَا وَيَنْهَبُوا أَمْوَالَهَا، فَعَبَرُوا الْبَحْرَ الْأَسْوَدَ وَنَزَلُوا بِمِينَاءِ هِرْقِلِيَّةَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ وَزَحَفُوا إِلَيْهَا.. وَاحْتَلُّوهَا.

وَبَلَغَتْ أَنْبَاءُ الْقُوطِيِّينَ إِلَى أُذَيْنَةَ وَهُوَ يُحْكِمُ حِصَارَهُ عَلَى الْمَدَائِنِ، أَسْرَعَ يَفُكُّ حِصَارَهُ عَنِ الْمَدِينَةِ وَعَادَ بِجَيْشِهِ إِلَى بِلَادِهِ لِنَجْدَتِهَا. وَحِينَ عَرَفَ الْقُوطِيُّونَ أَنَّهُ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِمْ، وَلَّوُا الْأَدْبَارَ هَارِبِينَ، فَلَمْ يُطَارِدْهُمْ، وَتَرَكَهُمْ يَهْرُبُونَ لِيَعُودُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا.

فَكَّرَ أُذَيْنَةُ فِي الْعَوْدَةِ لِحِصَارِ الْمَدَائِنِ، لَكِنْ رَأَى أَنَّ الْجُنُودَ قَدْ أُنْهِكُوا، فَقَرَّرَ أَنْ يُرِيحَهُمْ مِنْ قَسْوَةِ الْحُرُوبِ، وَلَوْ قَلِيلًا، وَأَنْ يُرِيحَ نَفْسَهُ أَيْضًا. وَعَادَ إِلَى تَدْمُرَ، إِلَى زِنُوبْيَا التَّوَّاقَةِ لِسَمَاعِ أَخْبَارِ بُطُولَاتِهِ وَانْتِصَارَاتِهِ، وَالَّتِي لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهَا مَا يُرْسِلُهُ لَهَا مِنْ أَخْبَارٍ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ.

وَاسْتَقْبَلَتْهُ الْمَدِينَةُ بِأَقْوَاسِ النَّصْرِ، وَاجْتَمَعَ رِجَالُ الْقَبَائِلِ بِخِيَامِهِمُ السَّوْدَاءِ خَارِجَ الْأَسْوَارِ لِاسْتِقْبَالِهِ بِالطُّبُولِ، وَدَخَلَ إِلَى زَوْجَتِهِ الْمُتَعَطِّشَةِ إِلَى حُرِّيَّةِ أَبْنَاءِ وَطَنِهَا، يَحْكِي لَهَا عَنْ تَخَاذُلِ الْفُرْسِ وَفُتُورِ هِمَّتِهِمْ فِي الْقِتَالِ، وَكَيْفَ كَانُوا يَهْرُبُونَ كَالْجُرْذَانِ أَمَامَ مُقَاتِلِيهِ الشُّجْعَانِ.

٨



كَانَ هُنَاكَ أَمْرٌ وَاحِدٌ يُقْلِقُ بَالَ أُذَيْنَةَ وَهُوَ يَسْـــعَى إِلَى الرَّاحَةِ، هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ أَبْنَاءُ الْبِلَادِ الَّتِي عَلَى ضِفَّةِ الْفُرَاتِ، وَقَدْ سَـــاءَتْ حَالَتُهَا مِنْ كَثْرَةِ غَزَوَاتِ الْفُرْسِ لَهَا وَقِيَامِ الْحُرُوبِ مِنْ حَوْلِهَا، وَقَدْ هَجَرُوا أَرْضَهُمْ وَتَرَكُوا بُيُوتَهُمْ خَوْفًا عَلَى حَيَاتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. وَلَا بُدَّ لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَعُودُوا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَنْ يَبْحَثُ عَنْهُمْ وَيُطَمْئِنُهُمْ، فَعَادُوا فَرِحِينَ آمِنِينَ.

وَبَعَثَ الرُّسُلَ إِلَى كُلِّ الْبِلَادِ، تَفَقَّدُوا أَحْوَالَ الْعِبَادِ، وَعَادُوا لِيُخْبِرُوهُ بِأَنَّ بَعْضًا مِنَ النَّاسِ فِي أَنْطَاكْيَةَ وَحِمْصَ وَدِمَشْـــقَ وَقَيْصَرِيَّةَ قَدْ آمَنُوا بِالْمَسِيحِيَّةِ، وَأَنَّ عُبَّادَ الشَّمْسِ يَضْطَهِدُونَهُمْ، وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ أَدَاءِ طُقُوسِ دِينِهِمْ، فَأَصْدَرَ قَانُونًا يَمْنَـــحُ الْجَمِيعَ الْحُرِّيَّةَ الْكَامِلَةَ فِي اخْتِيَارِ الدِّينِ الَّذِي شَـــاءَ، وَأَنَّ لِكُلٍّ أَنْ يَبْنِيَ مَعَابِدَهُ أَوْ كَنَائِسَهُ الَّتِي يُرِيدُ.

وَعَاشَ النَّاسُ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الَّتِي حَرَّرَهَا أُذَيْنَةُ حَيَاةً كَرِيمَةً، وَحَلَّ السِّـــلْمُ وَالرَّخَاءُ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَرْضِهِمْ، وَبَارَكَ اللَّهُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَعَوَّضَهُمْ عَمَّا فَاتَ خَيْرَ عِوَضٍ، لَكِنَّ أُذَيْنَةَ لَمْ يَسْتَرِحْ، وَلَمْ يَرْضَ قَطُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَمَا زَالَ سَابُورُ يَرْتَعُ فِي جُزْءٍ مِنَ الْأَرْضِ السُّورِيَّةِ، وَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَرْحَلَ عَنْهَا.

وَحَدَثَ أَنْ تَجَمَّعَ عَدَدٌ مِنْ جُنُودِ الرُّومَانِ الَّذِينَ تَرَكُوا الْخِدْمَةَ أَوْ هَرَبُوا مِنْهَا، وَكَوَّنُوا فِرَقًا إِرْهَابِيَّةً، وَرَاحُوا يَقْتَحِمُونَ بُيُوتَ أَهَالِي الشَّـــامِ، يُخَرِّبُونَ مَتَاعَهُمْ،

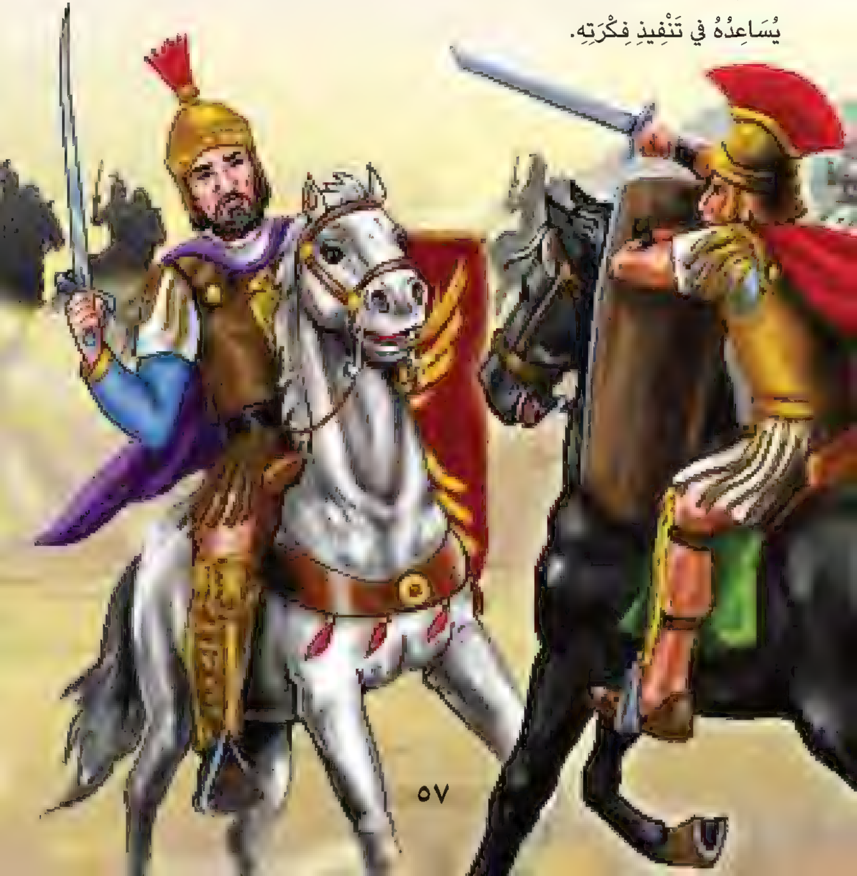
وَيَسْـــرِقُونَ أَمْوَالَهُمْ! وَبَلَغَ الْأَمْرُ أُذَيْنَةَ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يُؤَجِّلُ الصِّرَاعَ مَعَ الـــرُّومِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْ صِرَاعِهِ مَعَ الْفُرْسِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ يُعْلِنُ وَلَاءَهُ الدَّائِمَ لِلرُّومَانِ، فَقَدْ أَرْسَلَ فِرْقَةً مِنَ الْجُنْدِ قَضَتْ عَلَى جُنُودِهِمْ، وَعَادَ السِّلْمُ إِلَى مَمَالِكِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً.

وَبَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى قَيَاصِرَةِ الرُّومَانِ، فَانْتَبَهُوا إِلَى أَنَّ أُذَيْنَةَ قَدْ صَارَ خَطَرًا عَلَيْهِمْ، وَقَـــرَّرُوا الْخَلَاصَ مِنْهُ كَمَـــا تَخَلَّصُوا مِنْ وَالِدِهِ مِنْ قَبْـــلُ، وَبَحَثُوا عَمَّنْ يَقُومُ بِاغْتِيَالِهِ.



لَمْ يَجِدِ الرُّومَانُ غَيْرَ مُعَنًّى بْنِ خَيْرَانَ أَخِي أُذَيْنَةَ الَّذِي مَاتَ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ مِنْ يُوَسْوِسُ لَهُ فِي عَقْلِهِ، وَيُقْنِعُهُ بِأَنَّهُ كَانَ أَحَقَّ بِالْإِمَارَةِ بَعْدَ مَوْتِ وَالِدِهِ وَلَيْسَ أُذَيْنَةَ، وَأَفْهَمُوهُ أَنَّ عَمَّهُ اغْتَصَبَ حَقَّهُ مِنْهُ، وَطَالَبُوهُ بِأَنْ يُفَكِّرَ فِي اسْتِعَادَتِهِ وَسَوْفَ يُسَاعِدُونَهُ.

كَبِرَ الْحُلْمُ فِي عَقْلِ مُعَنًّى، وَأَسَرَّ فِي نَفْسِهِ الْخَلَاصَ مِنْ عَمِّهِ، وَرَاحَ يَبْحَثُ عَمَّنْ يُسَاعِدُهُ فِي تَنْفِيذِ فِكْرَتِهِ.



٩



لَمْ يَنْسَ أُذَيْنَةُ قَطُّ إِهَانَةَ سَـــابُورَ لَهُ وَلِرُسُـــلِهِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَنْ يَشْعُرَ بِالرَّاحَةِ وَسَـــابُورُ يَحْتَلُّ الْمَدَائِنَ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ لَنْ يَرْتَاحَ لَهُ بَالٌ، إِلَّا إِذَا قَاتَلَهُ ثَانِيَةً. فَأَمَرَ بِتَجْهِيزِ الْجَيْشِ، وَحَشَدَ جُمُوعَ الْمُقَاتِلِينَ.

وَحِينَ تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، أَنَابَ زِنُوبْيَا لِإِدَارَةِ الْبِلَادِ، وَتَوَجَّهَ لِلْقِتَالِ.

وَبَيْنَمَا أُذَيْنَةُ يُحَارِبُ سَـــابُورَ بِالْمَدَائِنِ، انْتَهَزَ الْقُوطُ الْفُرْصَةَ ثَانِيَةً وَرَكِبُوا مَرَاكِبَهُمْ وَعَبَرُوا الْبَحْرَ الْأَسْوَدَ وَاحْتَلُّوا مِينَاءَ هِرْقِلِيَّةَ، وَزَحَفُوا لِيَحْتَلُّوا عَدَدًا مِنَ الْمُدُنِ الْمُجَاوِرَةِ، وَخَرَّبُوا بُيُوتَهَا وَسَلَبُوا أَمْوَالَ أَهْلِهَا.

وَبَلَغَ الْأَمْرُ أُذَيْنَةَ فَكَفَّ عَنْ قِتَالِ سَابُورَ، وَوَجَّهَ جَيْشَهُ لِقِتَالِ الْقُوطِ فِي هِرْقِلِيَّةَ، وَعَرَفَ الْقُوطُ بِقُدُومِهِ إِلَيْهِمْ، فَأَسْرَعُوا إِلَى سُفُنِهِمْ وَهَرَبُوا مُبْحِرِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ. وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ أُذَيْنَةُ. فَعَادَ ثَانِيَةً فِي طَرِيقِهِ لِقِتَالِ سَابُورَ مَرَّةً ثَانِيَةً.

وَحِيـــنَ ابْتَعَدَ أُذَيْنَةُ كَثِيرًا عَنْ هِرْقِلِيَّةَ، كَانَ التَّعَبُ قَدْ حَطَّ عَلَيْهِ وَعَلَى الْجُنُودِ وَالْخَيْلِ وَالدَّوَابِّ، فَأَمَرَ أَنْ يَتَوَقَّفَ الْجَمِيعُ لِلرَّاحَةِ.

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ حِينَ يَطُولُ بِهِ السَّفَرُ، أَنْ يَخْرُجَ فِي رِحْلَةٍ يُمَارِسُ فِيهَا عِشْقَهُ لِصَيْدِ الْأُسُـــودِ وَالْفُهُودِ؛ فَطَلَبَ مِنِ ابْنِهِ هيروديس وَابْنِ أَخِيهِ مُعَنًّى، وَعَدَدٍ مِنَ الْجُنُودِ أَنْ يُصَاحِبُوهُ، فَوَافَقُوا وَرَاحُوا فِي رِحْلَةِ الصَّيْدِ الَّتِي يُحِبُّهَا.

تَوَغَّلُوا كَثِيرًا فِي الصَّحْرَاءِ.



وَحِينَ رَأَوْا فَهْدًا يَلْهُو بِغَزَالَةٍ قَبْلَ أَنْ يُمْسِكَ بِهَا، تَفَرَّقُوا يُحَاصِرُونَ طَرِيقَهُ، وَكَمَنُوا جَمِيعًا فِي انْتِظَارِهِ.

كَانَتِ الْغَزَالَةُ الْهَارِبَةُ تَقْفِزُ فِي الْهَوَاءِ قَفَزَاتٍ وَاسِعَةً الْوَاحِدَةَ بَعْدَ الْأُخْرَى، صَانِعَةً قَوْسًا كَبِيرًا..لَكِنَّهَا تَعُودُ إِلَى الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي انْطَلَقَتْ مِنْهُ، وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّهَا بِهَذَا الْفِعْلِ تُنَاوِرُ الْفَهْدَ وَتَهْرُبُ مِنْهُ، لَكِنَّهُ بِحُكْمِ غَرِيزَتِهِ يَعْرِفُ مَقْصِدَهَا، وَيَسِيرُ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ، وَاثِقٍ مِنْ عَوْدَتِهَا إِلَيْهِ.

وَاقْتَرَبَ الْفَهْدُ مِنْ مَكْمَنِ أُذَيْنَةَ وَابْنِهِ وَابْنِ أَخِيهِ.



شَدَّ كُلٌّ مِنْهُمْ قَوْسَــــهُ، وَعَيْنُهُ تَمْرُقُ فَوْقَ السَّهْمِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ أُفُقِيًّا فِي الْهَوَاءِ انْتِظَارًا لِلَّحْظَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا طَرَفُ السَّهْمِ فِي نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ كَبِدِ الْفَهْدِ.

وَفَجْأَةً.. أَطْلَقَ مُعَنًّى سَهْمَهُ.

كَانَ مَا فَعَلَهُ مُعَنًّى إِهَانَةً كَبِيرَةً لِعَمِّهِ، فَلَمْ يَحْدُثْ قَطُّ أَنْ أَطْلَقَ أَحَدٌ سَــــهْمَهُ قَبْلَ أَنْ يُطْلِقَ الْمَلِكُ، وَكَرَّرَهَا مُعَنًّى ثَلَاثَ مَــــرَّاتٍ؛ فَقَدْ كَانَ مُتَعَمِّدًا أَنْ يُصِيبَ كِبْرِيَاءَ عَمِّهِ فِي الصَّمِيمِ.

غَضِبَ أُذَيْنَةُ غَضَبًا شَــــدِيدًا، وَلِأَنَّ مُعَنًّى كَانَ مُتَعَمِّــــدًا فَلَمْ يَعْتَذِرْ لِعَمِّهِ بِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ خَطَأً لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِ بِكَلِمَاتٍ غَيْرِ لَائِقَةٍ، وَرَاحَ يُهَدِّدُهُ وَيُوعِدُهُ بِاسْتِرْدَادِ عَرْشِهِ الَّذِي اغْتَصَبَهُ بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ.

كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِأُذَيْنَةَ أَنْ يَأْمُرَ بِقَتْلِ ابْنِ أَخِيهِ فِي الْحَالِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُكَبَّلَ بِالْقُيُودِ وَأَنْ يَعُودَ إِلَى الْمُعَسْكَرِ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ مِثْلَ كُلِّ الْمُجْرِمِينَ. وَأَمَرَ جُنُودَهُ أَنْ يَشُــــدُّوا رِحَالَهُمْ وَأَنْ يُوَاصِلُوا زَحْفَهُمْ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى الْمَدَائِنِ، لِيُوَاصِلُوا حَرْبَهُمْ ضِدَّ سَابُورَ.

وَحِينَ دَخَلُوا حِمْصَ، انْتَهَزَ أُذَيْنَةُ الْفُرْصَةَ، وَأَقَامَ وَلِيمَةً كُبْرَى دَعَا إِلَيْهَا كِبَارَ قُوَّادِهِ، وَأُمَرَاءَ دَوْلَتِهِ، وَلَمْ يَرْضَ ابْنُــــهُ هيروديس أَلَّا يَحْضُرَ ابْنُ عَمِّهِ الْوَلِيمَةَ، فَذَهَبَ إِلَى أَبِيهِ، وَرَاحَ يَعْتَذِرُ لَهُ نِيَابَةً عَنِ ابْنِ عَمِّهِ وَيُطَيِّبُ خَاطِرَهُ حَتَّى رَضِيَ، وَزَالَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَعَفَا عَنِ ابْنِ أَخِيهِ، فَأَسْرَعَ هيروديس يَدْعُوهُ لِلْمَأْدُبَةِ.

لَمْ يَعْلَمْ أُذَيْنَةُ أَنَّهُ أَطْلَقَ سَــــرَاحَ قَاتِلِهِ، وَلَمْ يَتَوَقَّعْ هيروديس أَنَّهُ حَرَّرَ قَاتِلَهُ وَقَاتِلَ أَبِيهِ، فَقَدْ أَسْــــرَعَ مُعَنًّى إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِيــــنَ تَآمَرُوا مَعَهُ، وَقَرَّرُوا تَنْفِيذَ جَرِيمَتِهِمْ أَثْنَاءَ الْمَأْدُبَةِ، وَاتَّفَقُوا عَلَى صَيْحَةٍ يُطْلِقُهَا مُعَنًّى فَيَدْخُلُونَ بِسُيُوفِهِمْ،

يَقْطَعُونَ رِقَابَ مَنْ يَلْقَاهُمْ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى أُذَيْنَةَ وَوَلَدِهِ هيروديس.

وَمُدَّتِ الْمَوَائِدُ، وَوُضِعَتِ الْخِرَافُ الْمُحَمَّرَةُ وَالْمَشْوِيَّةُ، وَدَارَتْ أَوْعِيَةُ النَّبِيذِ تُرَاقُ فِي الْكُئُوسِ النُّحَاسِيَّةِ الْمَمْدُودَةِ فِي أَيْدِي الْمُقَاتِلِينَ، وَأَكَلَ الْجَمِيعُ حَتَّى امْتَلَأَتْ بُطُونُهُمْ، وَشَرِبُوا حَتَّى دَارَتْ رُءُوسُهُمْ، وَهُنَا صَاحَ مُعَنَّى عَلَى أَصْحَابِهِ، فَدَخَلُوا بِسُيُوفِهِمْ، فَقَتَلُوا مِنَ الْمَدْعُوِّينَ مَنْ قَتَلُوا، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أُذَيْنَةَ وَابْنِهِ، وَأَلْحَقُوهُمَا بِمَنْ سَبَقُوهُمَا إِلَى الْآخِرَةِ!!

وَتَحَقَّقَ لِلرُّومَانِ مَا أَرَادُوا، وَأَعْلَنَ مُعَنَّى نَفْسَهُ رَئِيسًا لِتَدْمُرَ، وَبَايَعَتْهُ الْعُصْبَةُ الَّتِي تَآمَرَتْ مَعَهُ! وَانْتَشَرَ الْخَبَرُ فِي حِمْصَ بِأَنَّ مُعَنَّى بْنَ خَيْرَانَ قَدِ اسْتَعَادَ عَرْشَ وَالِدِهِ، وَأَنَّهُ الْآنَ الْجَالِسُ عَلَى عَرْشِ الْمَمَالِكِ الشَّرْقِيَّةِ الْمُحَرَّرَةِ.

لَمْ يَرْضَ أَهْلُ حِمْصَ بِمَا حَدَثَ، وَثَارُوا جَمِيعًا، جُنُودًا وَمَدَنِيِّينَ عَلَى مُعَنَّى وَمَنْ مَعَهُ، وَمَا هِيَ إِلَّا عِدَّةُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ، حَتَّى تَمَكَّنُوا مِنْهُمْ وَقَتَلُوهُمْ جَمِيعًا، وَصَارَ عَرْشُ تَدْمُرَ خَالِيًا.. يَبْحَثُ عَمَّنْ يُوَاصِلُ تَحْرِيرَ النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ سُورِيَا، الْمُحْتَلِّ مِنَ الرُّومَانِ.

١٠



وَقَعَتْ صَدْمَـــةُ اغْتِيَالِ أُذَيْنَةَ عَلَى رَأْسِ زِنُوبْيَا كَالصَّاعِقَةِ؛ فَقَدِ اقْتَرَبَ الرَّجُلُ مِـــنْ تَحْقِيقِ حُلْمِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْعَرَبِيَّـــةِ بَيْنَ أَكْبَرِ قُوَّتَيْنِ فِي الْعَالَمِ، الْفُرْسِ وَالرُّومَانِ، لَكِنَّ الَّذِي جَعَلَهَا لَا تَغْرَقُ كَثِيرًا فِي حُزْنِهَا أَنَّ أُذَيْنَةَ قَدْ تَرَكَ تَدْمُرَ وَهِيَ فِي قِمَّةِ مَجْدِهَا الْعَسْكَرِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالِاقْتِصَادِيِّ، تَرَكَهَا وَهِيَ قَادِرَةٌ عَلَى حِمَايَةِ نَفْسِهَا، وَقَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تُؤَمِّنَ طُرُقَ قَوَافِلِهَا التِّجَارِيَّةِ، وَتَرَكَهَا وَهِيَ عَامِرَةٌ بِمَعَابِدِ آلِهَتِهَا، وَأَقْوَاسِ نَصْرِهَا.

وَأَخَذَ النَّاسُ يَتَسَـــاءَلُونَ عَمَّنْ سَيَقُودُ الْبِلَادَ فِي الْمَرْحَلَةِ الْقَادِمَةِ، وَيَأْخُذُ بِهَا مِنْ نَصْرٍ إِلَى نَصْرٍ كَمَا فَعَلَ أُذَيْنَةُ؟

وَجَاءَ الرَّدُّ مِنْ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، يَقُولُ: إِنَّ الْعُرْفَ وَالتَّقَالِيدَ يُحَتِّمَانِ أَنْ يَكُونَ الْقَائِدُ الْجَدِيدُ ابْنَ الْقَائِدِ الرَّاحِلِ.

وَتَسَاءَلَ رَجُلٌ مِنْ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ وَقَالَ:

ـ كَيْفَ نَسِيرُ عَلَى تَقَالِيدِنَا وَالِابْنُ الْكَبِيرُ لِأُذَيْنَةَ قَدِ اغْتِيلَ مَعَهُ؟

فَأَجَابَهُ ثَانٍ وَقَالَ:

ـ لِأُذَيْنَةَ ثَلَاثَةُ صِبْيَةٍ صِغَارٍ أَكْبَرُهُمْ وَهْبُ اللَّاتِ.

صَاحَ ثَالِثٌ وَقَالَ:

ـ كَيْفَ نُؤَمِّرُ عَلَيْنَا صَبِيًّا لَمْ يَتَجَاوَزِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ؟!



وَجَاءَ الْجَوَابُ مِنْ رَئِيسِ الْمَجْلِسِ يَقُولُ:

ـ نُعَيِّنُ لَهُ وَصِيًّا يَحْكُمُ بِاسْمِهِ حَتَّى يَكْبَرَ.

تَسَاءَلَ الْجَمِيعُ وَقَالُوا:

ـ وَمَنْ هَذَا الْوَصِيُّ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى تَدْمُرَ عَرُوسًا لِلصَّحْرَاءِ كَمَا هِيَ؟! وَمَنْ هَذَا الَّذِي يُكْمِلُ مَسِيرَةَ التَّحَرُّرِ الَّتِي بَدَأَهَا أُذَيْنَةُ؟!

وَجَاءَ الْجَوَابُ مِنْ رَئِيسِ الْمَجْلِسِ ثَانِيَةً، وَقَالَ:

ـ وَمَنْ أَفْضَلُ مِنْ أُمِّهِ؟!

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ قَائِلًا:

ـ فَزِنُوبْيَا أَكْثَرُ طُمُوحًا مِنْ زَوْجِهَا الَّذِي رَحَلَ غَدْرًا، وَلَهَا ثَقَافَتُهَا الَّتِي لَمْ يَبْلُغْهَا أَحَدٌ، إِضَافَةً إِلَى ذَكَائِهَا الْمُتَوَهِّجِ، وَعِلْمِهَا الْوَاسِعِ فِي فُنُونِ الْحَرْبِ والقِتَالِ.

وَافَقَ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ عَلَى الرَّأْيِ.

وَصَارَ الصَّبِيُّ وَهْبُ اللَّاتِ بْنُ أُذَيْنَةَ وزِنُوبْيَا رَئِيسًا عَلَى تَدْمُرَ وَكُلِّ الْمَمَالِكِ الَّتِي حَرَّرَهَا أَبُوهُ، وَصَارَتْ زِنُوبْيَا وَصِيَّةً عَلَيْهِ، تَحْكُمُ بِاسْمِهِ. وَانْطَلَقَتْ إِلَى الْقَبَائِلِ فِي الْبَادِيَةِ، وَرَاحَتْ تَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ، تُنَاقِشُهُمْ فِيمَا تُفَكِّرُ فِيهِ لِنَهْضَةِ بَلَدِهِمْ، تَحْكِي لَهُمْ عَنْ آمَالِهَا وَطُمُوحِهَا، تَطْلُبُ مِنْهُمْ أَلَّا يَخْدُمَ نَبَّالُوهُمْ وَقَوَّاسُوهُمْ فِي جُيُوشِ أَعْدَائِهِمُ الرُّومَانِ الَّذِينَ لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِي مَصَالِحِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ، وَأَنْ يَنْضَمُّوا إِلَى جَيْشِ بَلَدِهِمْ. تَدْعُوهُمْ إِلَى وَحْدَةٍ قَوْمِيَّةٍ؛ فَعَدُوُّهُمْ وَاحِدٌ.

وَتَسْتَجِيبُ قَبَائِلُ الْبَادِيَةِ كُلُّهَا، وَتُرْسِلُ خِيرَةَ شَبَابِهَا وَأَبْطَالِهَا إِلَى جَيْشِ الْوَطَنِ، وَهُمْ أَمْهَرُ مِنْ يَقْذِفُونَ بِالسِّهَامِ وَالرِّمَاحِ وَالنِّبَالِ.

كَانَتْ زِنُوبْيَا تَسْتَعِدُّ لِتَحْرِيرِ الْوَطَنِ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلرُّومَانِ.



جَمَعَتْ حَوْلَهَا عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الثَّقَافَةِ وَالْفِكْرِ، وَجَعَلَتْهُمْ مُسْتَشَارِينَ لَهَا، وَأَخَذَتْ تُخَاطِبُهُمْ عَنِ الْحُلْمِ الَّذِي يُرَاوِدُ خَيَالَهَا مُنْذُ صِبَاهَا.

لِمَ لَا تَبْنِي إِمْبِرَاطُورِيَّتَهَا الْعَرَبِيَّةَ الْكُبْرَى الَّتِي تَخْتَرِقُ آسْيَا الصُّغْرَى وَتَعْرُجُ إِلَى رُومَا وَتَقْهَرُ الرُّومَانَ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ وَتَسْتَوْلِي عَلَى مُلْكِهِمْ، وَتَجْلِسُ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ الرُّومَانِيِّ؟!!

لِمَ لَا يَحْدُثُ ذَلِكَ؟! أَلَمْ يَأْتِ الرُّومَانُ إِلَى هُنَا وَيَحْتَلُّوا أَرْضَهَا؟!

أَشَارَ عَلَيْهَا مُسْتَشَارُوهَا بِأَنَّ الدُّوَلَ لَا تَقُومُ عَلَى الْحُرُوبِ فَقَطْ، لَكِنَّهَا تَقُومُ عَلَى الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ أَوَّلًا، وَأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ تُرِيدُ فِعْلًا بِنَاءَ إِمْبِرَاطُورِيَّتِهَا، فَعَلَيْهَا أَنْ تَبْنِيَ دَاخِلَ وَطَنِهَا أَوَّلًا، وَأَنْ تَجْعَلَ كُلَّ مُوَاطِنٍ فِيهَا يَشْعُرُ بِعَظَمَةِ وَطَنِهِ، وَأَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ سَيِّدُ كُلِّ هَذِهِ الدُّنْيَا. فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَصِيرُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلتَّضْحِيَةِ بِرُوحِهِ فِي سَبِيلِهَا.

أَخَذَتْ زِنُوبْيَا بِكُلِّ آرَاءِ مُسْتَشَارِيهَا؛ فَأَمَرَتِ الْفَنَّانِينَ أَنْ يَزِيدُوا مِنْ إِبْدَاعَاتِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ وَالتَّمَاثِيلِ.

وَأَمَرَتِ الْعُمَّالَ أَنْ يَقُومُوا بِتَمْهِيدِ الشَّوَارِعِ؛ لِيُصْبِحَ السَّيْرُ فِيهَا سَهْلًا عَلَى النَّاسِ وَالدَّوَابِّ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يَشُقُّوا شَوَارِعَ جَدِيدَةً، وَأَنْ يَحْفِرُوا الْقَنَوَاتِ؛ حَتَّى تَصِلَ مِيَاهُ الْآبَارِ وَالْيَنَابِيعِ إِلَى كُلِّ قَبَائِلِ الْبَادِيَةِ.

وَازْدَادَتْ تَدْمُرُ نُمُوًّا وَازْدِهَارًا وَرُقِيًّا.

وَازْدَادَ النَّاسُ حُبًّا لِزِنُوبْيَا، وَازْدَادُوا تَفَانِيًا فِي خِدْمَةِ وَطَنِهِمْ.

وَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَقُولُ:

- إِنَّ زِنُوبْيَا تَحْمِلُ الْحِلْمَ وَالرَّأْفَةَ وَالْكَرَمَ فِي نَفْسِهَا، وَتُغْدِقُ بِهِمْ عَلَى الَّذِينَ

يُحْسِنُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ تَحْمِلُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّرَامَةِ ضِدَّ الْمُجْرِمِينَ، مَا يَخَافُ مِنْهُ الْفُهُودُ وَالْأُسُودُ.

صَارَتْ تَدْمُرُ وَكُلُّ الْمَمَالِكِ الَّتِي حَرَّرَهَا أُذَيْنَةُ مِنَ الْفُرْسِ آيَةً لِلنَّاظِرِينَ: شَوَارِعُهَا وَاسِعَةٌ مُمْتَدَّةٌ، تُزَيِّنُهَا التَّمَاثِيلُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، قُصُورُهَا شَاهِقَةٌ تُضَاهِي قُصُورَ رُومَا جَمَالًا، لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ وَثَنِيٍّ أَوْ يَهُودِيٍّ أَوْ مَسِيحِيٍّ، وَسَمَحَتْ لَهُمْ بِأَنْ يَبْنُوا مَعَابِدَهُمْ وَكَنَائِسَهُمْ كَمَا يُرِيدُونَ، وَأَنْ يُمَارِسُوا شَعَائِرَهُمُ الدِّينِيَّةَ كَمَا يَشَاءُونَ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ مِنْ أَجْنَاسٍ وَثَقَافَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَقَدْ جَعَلَتْ زِنُوبْيَا مِنْهُمْ جَمِيعًا شَعْبًا وَاحِدًا مُتَرَابِطًا، لَيْسَ لَهُ وَطَنٌ سِوَى تَدْمُرَ، وَلَا يَدِينُ بِالْوَلَاءِ لِأَيِّ سُلْطَانٍ إِلَّا لَهَا.

لَكِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي مُدُنِ الشَّاطِئِ الْغَرْبِيِّ لِلْفُرَاتِ، أَعْلَنُوا كَرَاهِيَتَهُمْ لِتَدْمُرَ وَالتَّدْمُرِيِّينَ، فَهَذِهِ الْمُدُنُ كَانَتْ تَحْتَ الْحُكْمِ الْفَارِسِيِّ قَبْلَ أَنْ يُحَرِّرَهَا أُذَيْنَةُ، وَكَانُوا تُجَّارًا يُتَاجِرُونَ مَعَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، وَحِينَ قَاتَلَ أُذَيْنَةُ لِيُحَرِّرَ بِلَادَهُمْ مِنَ الْفُرْسِ، لَمْ يَرْضَوا بِالْحُرِّيَّةِ! وَحَارَبُوا مَعَ الْفُرْسِ ضِدَّهُ؛ حَتَّى لَا يَفْقِدُوا نِصْفَ تِجَارَتِهِمْ.

وَحِينَ رَحَلَ أُذَيْنَةُ، وَجَاءَتْ زَيْنَبُ بِثَقَافَتِهَا الْوَاسِعَةِ، وَأَمَرَتِ الْمُثَقَّفِينَ وَالْفَلَاسِفَةَ أَنْ يُعَلِّمُوا النَّاسَ فِي تَدْمُرَ وَمَا حَوْلَهَا مَا يَعْلَمُونَ، وَتَعَلَّمَ النَّاسُ، وَصَارُوا لَا يَجِدُونَ حَرَجًا فِي أَنْ يَتَزَوَّجَ الْوَثَنِيُّ مِنْ يَهُودِيَّةٍ، أَوْ يَتَزَوَّجَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَثَنِيَّةٍ، رَفَضَ أَحْبَارُهُمْ هَذَا الِاخْتِلَاطَ، وَحَارَبُوهُ، وَحَرَّمُوهُ، وَقَالُوا إِنَّ هَذَا الزَّوَاجَ يُضَيِّعُ الدِّينَ الْيَهُودِيَّ وَيُضَيِّعُ تَقَالِيدَهُ، وَصَارُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِعَمَلِ أَيِّ شَيْءٍ لِهَدْمِ مَا فَعَلَتْهُ زِنُوبْيَا فِي الْبِلَادِ!!

وَتَسَــــامَحَتْ زِنُوبْيَا مَعَهُمْ، وَلَمْ تُعَاقِبْهُمْ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ فِي قِتَالِهِمْ مَعَ الْفُرْسِ ضِدَّ جَيْشِ بِلَادِهِمْ.

وَلَمْ تُعْطِ أُذُنَهَا لِمَنْ يَقُولُونَ إِنَّ لَهُــمْ دَوْرًا فِي قَتْلِ أُذَيْنَةَ؛ فَلَا دَلِيلَ يُثْبِتُ مَا يَقُولُونَ. تَمَنَّتْ أَنْ يُفِيقُوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ، وَأَنْ يُصْبِحُوا مُوَاطِنِينَ صَالِحِينَ.

وَوَاصَلَتْ جُهُودَهَا الْجَبَّارَةَ فِي بِنَاءِ أَسَاسِ إِمْبِرَاطُورِيَّتِهَا الَّتِي تَحْلُمُ بِهَا.

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، اسْتَطَاعَ زبدا وزبداي أَنْ يَصِلَا بِالْجَيْشِ إِلَى أَعْلَى مُسْتَوَيَاتِ الْمَهَارَةِ فِي فُنُونِ الْحَرْبِ، وَكُلُّهُمْ عَلَى اسْــتِعْدَادٍ لِلشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ حُرِّيَّةِ بَلَدِهِمْ.

وَذَاتَ يَوْمٍ، أَرَادَتْ زِنُوبْيَا أَنْ تَطْمَئِنَّ بِنَفْسِهَا عَلَى قُوَّةِ جَيْشِهَا وَدَرَجَةِ اسْتِعْدَادِهِ لِلْقِتَالِ، فَأَمَرَتْ زبدا وزبداي أَنْ يُقَدِّمَا جُنُودَهُمَا فِي عَرْضٍ عَسْكَرِيٍّ فِي الْمَدِينَةِ، لِتَرَاهُ وَيَرَى الْعَالَمُ كُلُّهُ مَدَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ جَيْشُهَا مِنْ قُوَّةٍ.

حَشَــرَ الْقَائِدَانِ جُنُودَهُمَا فِي صُفُوفٍ كَثِيفَةٍ، امْتَلَأَ بِهِمُ الشَّــارِعُ الرَّئِيسِيُّ وَالْمَيْدَانُ الْكَبِيرُ، وَلَبِسَتْ زِنُوبْيَا لِبَاسَ الْحَرْبِ، وَرَكِبَتْ حِصَانَهَا، وَكَشَفَتْ عَنْ زِنْدِهَا، وَرَاحَتْ تَمُرُّ أَمَامَ صُفُوفِ جَيْشِهَا وَهِيَ تَصِيحُ فِيهِمْ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ رَنَّانٍ، تُحَرِّضُهُمْ عَلَى التَّفَانِي فِي خِدْمَةِ الْوَطَنِ، وَتُشَجِّعُهُمْ عَلَى الْمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ، فَتَتَعَالَى صَيْحَاتُ الْجُنُودِ يَزْأَرُونَ كَالْأُسُودِ؛ يُلَبُّونَ النِّدَاءَ، يُعْلِنُونَ أَنَّهُمْ لِلْوَطَنِ فِدَاءٌ.

وَبَعْدَ الِاسْــتِعْرَاضِ انْصَرَفَ الْجُنُودُ إِلَى ثُكْنَاتِهِمْ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ مَلِيكَتَهُمْ مُؤَيَّدَةٌ مِنَ السَّــمَاءِ. أَمَّا هِيَ.. فَقَدِ اطْمَأَنَّتْ أَنَّ جَيْشَهَا قَدْ صَارَ بِالْقُوَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا جَيْشَا الرُّومِ وَالْفُرْسِ حَتَّى وَلَوِ اجْتَمَعَا فِي جَيْشٍ وَاحِدٍ.

وَوَصَلَتْ أَخْبَارُ الْجَيْشِ إِلَى سَــابُورَ الَّذِي لَمْ يَنْسَ مَا رَآهُ مِنْ بَسَــالَةِ جُنُودِ جَيْشِ أُذَيْنَةَ، وَلَمْ يَنْسَ طَعْمَ مَــرَارَةِ الْهَزِيمَةِ وَالْفِرَارِ مِنَ الْمَوْتِ وَالتَّحَصُّنِ فِي

الْمَدَائِنِ شَـــرْقَ الْفُرَاتِ، فَقَرَّرَ أَنْ يُرْسِلَ الْوُفُودَ إِلَى زِنُوبْيَا تَتَقَرَّبُ إِلَيْهَا، وَتَطْلُبُ وُدَّهَا وَالصُّلْحَ مَعَهَا.

جَاءَتْ وُفُودُ كِسْرَى تَطْلُبُ عَقْدَ مُعَاهَدَاتِ الصُّلْحِ بَيْنَهُمَا، فَأَدْرَكَتْ زَيْنَبُ أَنَّ كِسْرَى الْفُرْسِ صَارَ يَخْشَى قُوَّتَهَا كَمَا كَانَ يَخْشَى قُوَّةَ زَوْجِهَا مِنْ قَبْلُ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا لَيْسَتْ لَهَا رَغْبَةٌ فِي قِتَالِهِ الْآنَ، فَرَغْبَتُهَا الْأُولَى هِيَ تَحْرِيرُ الْأَرْضِ مِنْ غَرْبِ الْفُرَاتِ حَتَّى سَوَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ مِنْ أَيْدِي الرُّومَانِ، لِتَكُونَ دَوْلَةً عَرَبِيَّةً قَوِيَّةً تُسَيْطِرُ عَلَى التِّجَارَةِ الشَّـــرْقِيَّةِ، لَكِنَّ التَّحَالُفَ مَعَهُ، يَعْنِي أَنَّهُ لَنْ يُفَكِّرَ فِي الْهُجُومِ عَلَيْهَا، وَهَذَا يَعْنِي عَدَمَ تَفْرِيقِ قُوَّتِهَا، وَتَوْجِيهَهَا نَحْوَ تَحْقِيقِ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنْ حُلْمِهَا الْكَبِيرِ، وَهُوَ بِنَاءُ إِمْبِرَاطُورِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ عَلَى كَامِلِ الْأَرْضِ السُّورِيَّةِ، وَآسْـــيَا الصُّغْرَى، وُصُولًا إِلَى رُومَا، وَالِاسْتِيلَاءُ عَلَيْهَا، وَجُلُوسُهَا عَلَى كُرْسِيِّ الْحُكْمِ هُنَاكَ!

وَبِدُونِ تَرَدُّدٍ، وَافَقَتْ زَيْنَبُ عَلَى طَلَبِ سَـــابُورَ، وَوَقَّعَتْ مَعَ الْوُفُودِ مُعَاهَدَةَ عَـــدَمِ اعْتِدَاءِ أَيٍّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ، وَأَنْ يَكُونَ حَلِيفًا لَهُ، يَنْصُرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ حِينَ يَتَعَرَّضُ لِلِاعْتِدَاءِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ زِنُوبْيَا قَدْ وَقَّعَتِ اتِّفَاقِيَّةَ مُصَالَحَةٍ وَعَدَمِ اعْتِدَاءٍ مَعَ الْفُرْسِ، لَكِنَّهَا قَامَتْ بِبِنَاءِ حُصُونٍ عَلَى الضِّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ؛ لِتَقِفَ رَادِعَةً لِأَيِّ عُدْوَانٍ يَأْتِيهَا مِنَ الْفُرْسِ. وَأَمَرَتْ زبدا وزبداي قَائِدَيْ جَيْشِهَا أَنْ يُقِيمَا حَامِيَاتٍ تَدْمُرِيَّةً عَلَى حُدُودِ الْأَرْضِ الْمُحَرَّرَةِ فِي الشَّمَالِ.

وَحِينَ نُفِّذَ لَهَا مَا أَرَادَتْ، صَارَتْ تَدْمُرُ وَالْبِلَادُ الْمُحَرَّرَةُ مُؤَمَّنَةً تَمَامًا ضِدَّ أَيِّ غَزْوٍ خَارِجِيٍّ.

١١

وَاصَلَتْ زَيْنَبُ إِدَارَتَهَا لِلْبِلَادِ بِنَجَاحٍ، وَأَظْهَرَتْ مَقْدِرَةً فَائِقَةً فِي إِدَارَةِ شُئُونِ الْمُلْكِ، لَمْ تَسْمَحْ بِأَيِّ تَقْصِيرٍ يُعَطِّلُ هَرْوَلَتَهَا نَحْوَ تَحْقِيقِ أَحْلَامِهَا بِإِقَامَةِ إِمْبِرَاطُورِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ قَوِيَّةٍ، تَجْعَلُهَا تَجْلِسُ عَلَى عَرْشِ الْقَيْصَرِ فِي رُومَا.

لَكِنَّ الْيَهُودَ فِي تَدْمُرَ وَمُدُنِ نَهْرِ الْفُرَاتِ لَمْ يُصْبِحُوا مُوَاطِنِينَ صَالِحِينَ، كَمَا تَمَنَّتْ زَيْنَبُ، بَلْ عَمِلَ بَعْضُهُمْ جَوَاسِيسَ لِلرُّومَانِ يَنْقُلُونَ إِلَيْهِمْ أَخْبَارَ مَا تَفْعَلُهُ مِنِ اسْتِعْدَادَاتٍ بِالْجَيْشِ وَإِصْلَاحَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ بَيْنَ النَّاسِ.

وَحِينَ وَصَلَتِ الْمَعْلُومَاتُ إِلَى مَجْلِسِ شُيُوخِ رُومَا، انْزَعَجُوا لِهَذَا التَّقَدُّمِ الَّذِي تُحَقِّقُهُ زَيْنَبُ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى إِدَارَةِ تَدْمُرَ، بَيْنَمَا قُدْرَةُ الْقَيْصَرِ تَتَرَاجَعُ، وَرَاحُوا يُعَاتِبُونَهُ وَيَتَّهِمُونَهُ بِالتَّخَاذُلِ الَّذِي سَيُؤَدِّي إِلَى تَرَاجُعِ سَطْوَتِهِمْ عَلَى مُسْتَعْمَرَاتِهِمْ، وَظَلُّوا يَلُومُونَهُ وَيَدْفَعُونَهُ لِأَنْ يَقُومَ بِفِعْلٍ يُوقِفُ تَقَدُّمَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْحَدِيدِيَّةِ وَيُقَلِّلُ مِنْ قُدْرَاتِهَا، وَأَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا إِنْ أَمْكَنَهُ، قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي تُغْرِيهَا بِمُهَاجَمَةِ رُومَا نَفْسِهَا.

أَرْسَلَ عُيُونُ زَيْنَبَ فِي رُومَا، يُخْبِرُونَهَا بِأَنَّ الْقَيْصَرَ سَيُرْسِلُ جَيْشًا كَبِيرًا مُتَظَاهِرًا بِأَنَّهُ قَادِمٌ لِقِتَالِ سَابُورَ مَلِكِ الْفُرْسِ، لَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَادِمٌ لِقِتَالِهَا وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا!

عَلَى الْفَوْرِ، لَبِسَتْ لِبَاسَ الْحَرْبِ، وَاسْتَدْعَتْ زبدا وزبداي، وَأَمَرَتْهُمَا أَنْ يَحْشُدَا كُلَّ الْفُرْسَانِ وَالْقَوَّاسِينَ وَالنَّبَّالِينَ وَأَنْ يَسْتَعِدَّا لِلْحَرْبِ، وَأَسْرَعَ الْقَائِدَانِ يُنَفِّذَانِ الْأَمْرَ.

وَلَمْ تَمْضِ عِدَّةُ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ حَتَّى كَانَ جَيْشُ تَدْمُرَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِقِتَالِ جَيْشَيِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ مُجْتَمِعَيْنِ! وَرَكِبَتْ زَيْنَبُ حِصَانَهَا وَسَارَتْ أَمَامَ الْجَيْشِ فِي طَرِيقِهَا إِلَى شَمَالِ سُورِيَا لِتَكْمُنَ هُنَاكَ.. بِالْقُرْبِ مِنْ حُدُودِ فَارِسَ، الَّتِي يَدَّعِي قَيْصَرُ رُومَا أَنَّهُ آتٍ لِقِتَالِهَا، وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَلْتَفَّ مِنْ هُنَاكَ، لِيُطَوِّقَ الْجَيْشَ التَّدْمُرِيَّ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ سَيَقْضِي عَلَيْهِ.

لَمْ يَدْرِ أَنَّ جَيْشَ تَدْمُرَ يَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ.. وَيَكْمُنُ فِي انْتِظَارِهِ.

وَجَاءَ جَيْشُ الرُّومَانِ بِقِيَادَةِ هرقليانوس وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ فِي نُزْهَةٍ، وَيُفِيقُ عَلَى مُفَاجَأَةِ الْجَيْشِ التَّدْمُرِيِّ لَهُ، وَالْتَحَمَ الْجَيْشَانِ، وَتَرَاقَصَتْ سُيُوفُ التَّدْمُرِيِّينَ بَيْنَ رِقَابِ الرُّومِ، وَانْطَلَقَتْ سِهَامُهُمْ وَنِبَالُهُمُ الَّتِي يَعْرِفُ الرُّومَانُ أَنَّهَا لَا تُخْطِئُ أَبَدًا، تَخْتَرِقُ صُدُورَهُمْ، وَيَسْقُطُ الرُّومَانُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْعَرَبِ بِالْعَشَرَاتِ!

وَتَتَلَاشَى صَيْحَاتُ هرقليانوس الَّتِي يَحُثُّ فِيهَا جُنُودَهُ عَلَى الصُّمُودِ وَالْقِتَالِ، بَيْنَ أَنَّاتِ الْجَرْحَى وَزَئِيرِ الْجُنُودِ الْعَرَبِ، وَصَهِيلِ خُيُولِ الْفُرْسَان، حَتَّى أَسْكَتَتْهُ حَرْبَةٌ اخْتَرَقَتْ رَقَبَتَهُ وَأَرْسَلَتْ بِرُوحِهِ إِلَى الْجَحِيمِ!

حِينَ سَرَى خَبَرُ مَقْتَلِ هرقليانوس بَيْنَ الرُّومَانِ، انْفَرَطَ عِقْدُهُمْ، وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَكَفُّوا عَنِ الْقِتَالِ، وَصَارَ هَمُّ كُلٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَهْرُبَ مِنْ وَجْهِ الْمَوْتِ، وَرَاحُوا يَفِرُّونَ هَارِبِينَ عَائِدِينَ إِلَى رُومَا وَهُمْ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الْعَارِ وَالْهَزِيمَةِ، وَتَرَكُوا جَسَدَ قَائِدِهِمْ هرقليانوس مُلْقًى فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ.

عَادَتْ زَيْنَبُ بِجَيْشِهَا الْمُنْتَصِرِ إِلَى تَدْمُرَ، وَاخْتَرَقَتِ الْمُدُنَ عَلَى طُولِ السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لِلْفُرَاتِ، تُرَاقِبُهَا أَعْيُنُ الْفُرْسِ الْخَائِفَةُ عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، بَيْنَمَا أَعْيُنُ الْيَهُودِ فِي الْمُدُنِ الَّتِي حَرَّرَتْهَا تَبْكِي حُزْنًا لِانْتِصَارِهَا عَلَى الرُّومَانِ. وَعَادَ حُلْمُهَا بِتَكْوِينِ إِمْبَرَاطُورِيَّتِهَا الْعَرَبِيَّةِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ كُلِّهَا يُرَاوِدُهَا بِقُوَّةٍ، وَلِمَ لَا؟ فَهِيَ عَائِدَةٌ مِنْ نَصْرٍ سَاحِقٍ عَلَى جُيُوشِ الرُّومِ.



عَادَتْ زِنُوبْيَا بِجَيْشِـــهَا الْمُنْتَصِرِ إِلَى تَدْمُرَ، بَعْـــدَ أَنْ قَهَرَتْ جَيْشَ الرُّومَانِ وَقَتَلَـــتْ قَائِدَهُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا فَعَلَتْهُ هُوَ قِرَاءَةُ الْأَحْدَاثِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا، مُنْذُ مَقْتَلِ أُذَيْنَةَ الْأَوَّلِ حَتَّى اللَّحْظَةِ الَّتِي تَعِيشُـــهَا الْآنَ. وَرَأَتْ أَنَّ مُوَالَاتَهُمْ لِلْفُرْسِ لَمْ تَعُدْ بِأَيِّ خَيْرٍ عَلَى الْمَدِينَةِ أَوْ مَلِكِهَا، وَهَا هُوَ سَـــابُورُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهَا يَطْلُبُ وُدَّهَا، وَيُوَقِّعُ مَعَهَا مُعَاهَدَاتِ الصُّلْحِ وَالْمُؤَازَرَةِ، فَلَا خَوْفَ مِنْ نَاحِيَتِهِ.

وَرَأَتْ أَنَّ مُوَالَاتَهُمْ لِلرُّومِ لَمْ تَأْتِ بِشَيْءٍ سِوَى الْأَلْقَابِ الَّتِي أَسْرَفُوا فِي مَنْحِهَا إِيَّاهُمْ، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ أَسْرَفُوا فِي تَحْصِيلِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالٍ!

وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا:

- إِنَّ تَدْمُرَ لَنْ تَخْسَرَ شَيْئًا إِنْ أَعْلَنَتِ اسْتِقْلَالَهَا.

إِنَّهَا الْآنَ قَوِيَّةٌ، وَشَعْبُهَا يَعْشَقُ وَطَنَهُ، وَعَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْمَوْتِ مِنْ أَجْلِهِ.

إِذَنْ.. فَقَدْ آنَ الْأَوَانُ لِإِعْلَانِ تَدْمُرَ مَمْلَكَةً مُسْتَقِلَّةً.

رَاحَتْ زَيْنَبُ إِلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، وَمِنْ هُنَاكَ.. أَعْلَنَتْ أَنَّهَا أَلْغَتْ كُلَّ الِاتِّفَاقِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ مَعْقُودَةً مَعَ الرُّومَانِ، وَأَنَّ تَدْمُرَ قَدْ صَارَتْ مَمْلَكَةً حُرَّةً مُسْـــتَقِلَّةً، لَا سُلْطَانَ لِأَيٍّ مِنْهُمَا عَلَيْهَا.

وَأَمَرَتْ بِمَحْوِ صُـــورَةِ الْقَيْصَرِ الرُّومَانِيِّ مِنْ وَجْهِ عُمْلَاتِهَا الْمَعْدِنِيَّةِ وَوَضْعِ صُورَةِ ابْنِهَا وَهْبِ اللَّاتِ عَلَيْهَا.

وَأَطْلَقَتْ عَلَى ابْنِهَا لَقَبَيِ الْقُنْصُلِ وَالْقَائِدِ الْعَامِّ لِلْقُوَّاتِ.

وَضَجَّ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ بِالتَّصْفِيقِ وَالْهُتَافِ بِحَيَاةِ تَدْمُرَ وَمَلِكَتِهَا زِنُوبْيَا.

كَانَتْ زِنُوبْيَا تُـــدْرِكُ نَتِيجَةَ فَعْلَتِهَا هَذِهِ، فَلَنْ يُمَرِّرَهَا الرُّومَانُ مُرُورَ الْكِرَامِ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَسْتَعِدَّ لَهُمْ، فَاسْتَدْعَتْ زبدا وزبداي، وَهُمَا مِنْ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهَا وَعُمُومَةِ



زَوْجِهَا، وَجَعَلَتْ زبدا قَائِدًا عَامًّا لِلْجَيْشِ وزبداي قَائِدًا مَيْدَانِيًّا، وَأَمَرَتْهُمَا بِتَحْصِينِ أَسْوَارِ تَدْمُرَ، وَتَقْوِيَةِ كَافَّةِ الْحُصُونِ وَالْحَامِيَاتِ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا تَحَسُّبًا لِأَيِّ عُدْوَانٍ مِنَ الرُّومَانِ عَلَيْهَا، وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ فِي أَيِّ وَقْتٍ، فَطَمْأَنَهَا الْقَائِدَانِ وَانْصَرَفَا لِتَنْفِيذِ الْأَمْرِ.

فِي هَذَا الْوَقْتِ، كَانَتْ فُلُولُ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ الْمُنْهَزِمِ قَدْ عَادَتْ إِلَى رُومَا، لِيُفَاجَأَ بِهِمُ الشَّارِعُ الرُّومَانِيُّ وَهُمْ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الْهَزِيمَةِ، وَيَجْتَمِعُ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ فِي رُومَا لِيُنَاقِشَ أَسْــبَابَ هَذَا الْعَارِ الَّذِي حَطَّ عَلَى إِمْبِرَاطُورِيَّتِهِمْ، وَيَصِيحُونَ فِي قَيْصَرِهِمْ كلوديوس وَيَقُولُونَ لَهُ:

- يَا كلوديوس أغسطس.. نَجِّنَا مِنْ زِنُوبْيَا.
- يَا كلوديوس أغسطس.. أَغِثْنَا مِنَ التَّدْمُرِيِّينَ.

لَمْ يَكُنْ كلوديوس أغسطس يَسْتَطِيعُ أَنْ يُلَبِّيَ طَلَبَ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ بِالذَّهَابِ إِلَى الشَّرْقِ لِلْقَضَاءِ عَلَى جُيُوشِ زِنُوبْيَا؛ فَقَدْ كَانَ الْقُوطُ وَالْقَبَائِلُ الْجِرْمَانِيَّةُ يَشُنُّونَ هَجَمَاتٍ مُتَوَالِيَةً عَلَى حُدُودِ إِمْبِرَاطُورِيَّتِهِ، فَرَأَى أَنَّهُ مِنَ الْعَبَثِ أَنْ يُحَارِبَ زِنُوبْيَا وَهِيَ عَلَى هَذَا الْمُسْتَوَى مِنَ الْقُوَّةِ، وَقَرَّرَ الِانْتِظَارَ حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْ تَأْمِينِ حُدُودِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ يُلَمْلِمَ جُيُوشَهُ، وَيَسْتَعِيدَ قُوَّتَهُ، وَيَذْهَبَ لِتَأْدِيبِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمُتَمَرِّدَةِ.



لَمْ يَكُـــنْ كلوديوس يَعْرِفُ أَنَّ زِنُوبْيَا تَجْلِسُ الْآنَ فِي نَشْـــوَةِ النَّصْرِ، حَالِمَةً بِإِمْبَرَاطُورِيَّتِهَا الْعَرَبِيَّةِ الْعُظْمَى، وَقَدْ تَخَطَّتْ عَيْنَاهَا حُدُودَ مَمْلَكَتِهَا، وَأَخَذَتْ طَرِيقَهَا إِلَى رُومَا!!

تَوَقَّفَتْ عَيْنَا زِنُوبْيَا قَلِيلًا فَوْقَ مَمْلَكَةِ الْغَالِ، فَهِيَ الْمَمْلَكَةُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رُومَا، وَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَخَطَّى هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ دُونَ قِتَالٍ؛ حَتَّى لَا تُنْهَكَ جُيُوشُـــهَا بَعِيدًا عَنْ هَدَفِهِمُ الْأَصْلِيِّ، وَهُوَ رُومَا.. وَسَرِيرُ الْعَرْشِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ.

وَكَانَ لَا بُدَّ مِـــنَ التَّفَاوُضِ مَعَ الْمَلِكَةِ فِيكْتُورْيَا، مَلِكَةِ بِلَادِ الْغَالِ عَلَى تَوْحِيدِ الْخُطَطِ فِي مُهَاجَمَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ وَاقْتِسَـــامِهَا، وَأَرْسَلَتْ لَهَا الْوُفُودَ تَعْرِضُ عَلَيْهَا الرَّأْيَ.

وَوَافَقَتِ الْمَلِكَةُ فِيكْتُورْيَا عَلَى تَوْقِيعِ الْمُعَاهَدَةِ. وَهَكَذَا، صَارَ الطَّرِيقُ مُمَهَّدًا أَمَامَ إِمْبَرَاطُورَةِ الشَّرْقِ إِلَى سَرِيرِ عَرْشِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ.

فَهَذِهِ مَمْلَكَةُ الْغَالِ الَّتِي تُحِيطُ بِهَا قَدْ صَارَتْ حَلِيفًا لَهَا.

وَهَذَا جَيْشُهَا الَّذِي يَضُمُّ فِي صُفُوفِهِ أَمْهَرَ النَّبَّالِينَ وَالْقَوَّاسِينَ الَّذِينَ لَا يُخْطِئُ لَهُمْ سَهْمٌ وَلَا حَرْبَةٌ حَتَّى لَوْ كَانُوا عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ وَالْجِمَالِ مُسْتَعِدًّا لِلْمَوْتِ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ وَطَنِهِ.

قَرَّرَتْ زِنُوبْيَا الْبَدْءَ فِي تَنْفِيذِ الْحُلْمِ.

اسْتَدْعَتْ قَائِدَيْ جَيْشِـــهَا زبدا وزبداي، وَأَمَرَتْهُمَا بِالِاسْتِعْدَادِ لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ.

وَرَاحَتْ إِلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ وَشَاوَرَتْهُمْ فِي الِانْطِلَاقِ نَحْوَ رُومَا، فَلَمْ يَعْتَرِضْ أَحَدٌ، وَبَارَكُوا رَأْيَهَا، وَصَلُّوا مِنْ أَجْلِ تَوْفِيقِهَا وَنَجَاحِهَا.

انْتَظَرَتْ زِنُوبْيَا حَتَّى أَخْبَرَهَا زبدا وزبداي بِأَنَّ جُيُوشَهَا جَاهِزَةٌ لِلتَّحَرُّكِ نَحْوَ الشَّمَالِ، وَأَنَّهُمْ يَتَشَوَّقُونَ لِاقْتِنَاصِ النَّصْرِ عَلَى الرُّومَانِ، فَلَبِسَتْ لِبَاسَ الْحَرْبِ، وَقَفَزَتْ إِلَى عَرَبَتِهَا الَّتِي أَعَدَّتْهَا خِصِّيصًا لِلدُّخُولِ بِهَا فِي مَوْكِبِ النَّصْرِ إِلَى رُومَا، وَرَاحَتْ تَقُودُ جَيْشَهَا فِي الطَّرِيقِ إِلَى آسْيَا الصُّغْرَى.

لَمْ تَجِدِ الْجُيُوشُ التَّدْمُرِيَّةُ أَيَّةَ مُقَاوَمَةٍ مِنْ مُدُنِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهَا، جَمِيعُهُمُ اسْتَسْلَمُوا لَهَا دُونَ قِتَالٍ، وَكُلَّمَا تَقَدَّمَتْ إِلَى الْأَمَامِ، حَقَّقَتْ زِنُوبْيَا الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَ مِنْ حُلْمِهَا الْكَبِيرِ، وَصَارَتْ أَجْزَاءٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ فِي قَبْضَتِهَا، وَسَيْطَرَتْ عَلَى كُلِّ طُرُقِ الْمُوَاصَلَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ رُومَا بِالشَّرْقِ الْأَقْصَى، وَقَطَعَتْ عَلَيْهَا طُرُقَ إِمْدَادَاتِهَا التَّمْوِينِيَّةِ وَالتِّجَارِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ.

قَارَبَ الْحُلْمُ أَنْ يَصِيرَ حَقِيقَةً.

لَمْ يَعُدْ أَمَامَ زَيْنَبَ إِلَّا فَتْحُ خَلْقِيدُونَ وَالسَّيْطَرَةُ عَلَيْهَا، وَالِانْطِلَاقُ مِنْهَا إِلَى رُومَا. لَكِنَّ أَهْلَ خَلْقِيدُونَ رَفَضُوا الِاسْتِسْلَامَ، وَقَرَّرُوا الْمُقَاوَمَةَ وَالْقِتَالَ دِفَاعًا عَنْ مَدِينَتِهِمْ. وَعَرْقَلَتْ خَلْقِيدُونُ تَقَدُّمَ زِنُوبْيَا.

قَاوَمُوا بِضَرَاوَةٍ فَلَمْ تَسْتَطِعِ الْجُيُوشُ التَّدْمُرِيَّةُ فَتْحَهَا، فَحَاصَرَتْهَا عَلَى أَمَلِ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا، وَيَفْتَحُوا أَبْوَابَ أَسْوَارِ مَدِينَتِهِمْ.

وَلَمْ يَفْتَحْ أَهْلُ خَلْقِيدُونَ الْأَبْوَابَ، لَكِنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَى أورليانوس إِمْبِرَاطُورِ الرُّومِ يَسْتَغِيثُونَ بِهِ وَيَطْلُبُونَ نَجْدَتَهُ.

وَجَاءَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى زَيْنَبَ تَقُولُ إِنَّ أورليانوس قَدْ سَارَ إِلَيْهَا عَلَى رَأْسِ قُوَّاتٍ كَبِيرَةٍ، وَأَنَّهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى عُبُورِ مَضِيقِ الْبُسْفُورِ لِقِتَالِهَا.

أَوْقَفَتْ زَيْنَبُ خُطَطَهَا الْعَسْكَرِيَّةَ الْهُجُومِيَّةَ، وَوَضَعَتْ خُطَطًا دِفَاعِيَّةً، كَانَ أَوَّلَ بُنُودها هُوَ إِنْهَاءُ حِصَارِ خَلْقِيدُونَ وَالتَّرَاجُعُ إِلَى بِيثِينِيَّةَ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلِقَاءِ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ هُنَاكَ.

وَعَبَرَ الْجَيْشُ الرُّومَانِيُّ مَضِيقَ الْبُسْفُورِ، وَزَحَفَ إِلَى بِيثِينِيَّةَ، وَفَاجَأَ الْجَيْشَ التَّدْمُرِيَّ وَدَارَ بَيْنَهُمَا قِتَالٌ عَنِيفٌ انْتَهَى بِهَزِيمَةِ جَيْشِ زِنُوبْيَا، وَانْسِحَابِهِ مِنْ بِيثِينِيَّةَ.

وَوَاصَلَتْ مَلِكَةُ الشَّرْقِ قِيَادَةَ جَيْشِهَا بِالِانْسِحَابِ الْمُنَظَّمِ حَتَّى صَارُوا بِالْقُرْبِ مِنْ أَنْطَاكِيَةَ، فَتَوَقَّفَتْ وَلَمْ تَرْضَ أَنْ تَتَحَصَّنَ فِيهَا؛ حَتَّى لَا يُضَارَ أَهْلُهَا، وَرَاحَتْ تَدُورُ عَلَى الْفَصَائِلِ الْمُخْتَلِفَةِ، تُرَتِّبُ صُفُوفَهُمْ، وَتُشْرِفُ عَلَى إِقَامَةِ مَنَاجِيقِهِمُ الَّتِي يَقْذِفُونَ بِهَا الْكُتَلَ الصَّخْرِيَّةَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَتِلْكَ الَّتِي يَقْذِفُونَ بِهَا كُرَاتِ اللَّهَبِ. وَصَوْتُهَا الْقَوِيُّ الرَّنَّانُ يُلْهِبُ حَمَاسَةَ الْجُنُودِ، وَيُشَجِّعُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى الْمَوْتِ دِفَاعًا عَنْ إِمْبِرَاطُورِيَّتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ.

وَاقْتَرَبَتِ الْجُيُوشُ الرُّومَانِيَّةُ، وَمَا إِنْ صُفَّتْ صُفُوفُهُمُ اسْتِعْدَادًا لِلْقِتَالِ، وَبَدَأَ هُجُومُ الْفُرْسَانِ التَّدْمُرِيَّةِ، حَتَّى هَرَبَ الرُّومَانُ مِنْ أَمَامِهِمْ، وَلَمْ يُقَاتِلُوا! وَأَسْرَعَ الْفُرْسَانُ التَّدْمُرِيُّونَ بِمُطَارَدَتِهِمْ عَلَى أَمَلِ اللَّحَاقِ بِهِمْ.

كَانَتْ خُدْعَةً مِنَ الْقَيْصَرِ أورليانوس، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ بِالْجَيْشِ التَّدْمُرِيِّ فِرْقَتَيْنِ مِنَ الْفُرْسَانِ لَيْسَ لَهُمَا مَثِيلٌ فِي قُوَّتِهِمْ وَدِقَّةِ تَصْوِيبِهِمْ، وَهُمَا فِرْقَتَا الْقَوَّاسِينَ وَالنَّبَّالِينَ، لِذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ جُنُودَهُ بِعَدَمِ الِاشْتِبَاكِ مَعَهُمْ، وَالْهَرَبِ أَمَامَهُمْ لِمَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ، ثُمَّ يَنْقَلِبُونَ لِقِتَالِهِمْ.

يَعْرِفُ أورليانوس أَنَّ خُيُولَهُمْ أَسْرَعُ مِنْ خُيُولِ فُرْسَانِ تَدْمُر، وَيَعْرِفُ أَنَّ

الْفَارِسَ التَّدْمُرِيَّ يَحْمِـــلُ عَتَادًا أَكْثَرَ مِمَّا يَحْمِلُ الْفَارِسُ الرُّومَانِيُّ، وَيَعْرِفُ أَنَّ التَّعَبَ سَيَحُلُّ بِهِمْ وَبِخَيْلِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِفُرْسَانِهِ وَخُيُولِهِمْ.

وَكَانَ لَهُ مَا أَرَادَ، وَابْتَعَدَ فُرْسَانُ تَدْمُرَ كَثِيرًا عَنْ أَنْطَاكِيَةَ، وَتَفَكَّكَتْ أَوْصَالُهُمْ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُطَارِدُونَ فُلُولًا تَهْرُبُ مِـــنْ قِتَالِهِمْ، وَفَجْأَةً أَمَرَ أورليانوس جُنُودَهُ بِالْقِتَالِ، فَانْقَلَبُوا يُوَاجِهُونَ فُرْسَـــانَ تَدْمُرَ الَّذِينَ أَنْهَكَتْهُمُ الْمُطَارَدَةُ، وَالْتَقَتِ السُّيُوفُ وَتَطَايَرَتِ الرِّمَاحُ وَالسِّهَامُ، وَالنِّبَالُ تَخْتَرِقُ أَجْسَادَهُمْ.

وَانْهَزَمَ الْجَيْشُ التَّدْمُرِيُّ هَزِيمَةً سَـــاحِقَةً فِي مَعْرَكَـــةِ الْخَدِيعَةِ، قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَهَرَبَ مِنْهُمْ مَنْ هَرَبَ، وَعَادَ النَّاجُونَ إِلَى مُعَسْـــكَرِهِمْ، وَبَدَءُوا جَمِيعًا يَنْسَحِبُونَ نَحْوَ أَنْطَاكِيَةَ.

لَمْ تَكُنِ الْمَلِكَةُ تُرِيدُ أَنْ تُعَسْـــكِرَ بِفُرْسَانِهَا فِي أَنْطَاكِيَةَ أَوْ تَحْتَمِيَ بِهِمْ فِيهَا؛ فَهِيَ تَعْرِفُ أَنَّ أَغْلَبَ أَهْلِهَـــا مِنَ الْيُونَانِيِّينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ الْحُكْمَ الرُّومِيَّ عَلَى الْعَرَبِيِّ، هَذَا غَيْرَ الْيَهُـــودِ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ انْتِصَارَاتِ الْعَرَبِ عَلَى الرُّومَانِ، لِذَلِكَ أَمَرَتْ بِتَخَطِّيهَا وَمُوَاصَلَةِ السَّيْرِ إِلَى حِمْصَ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَخَلَ الْقَيْصَرُ الرُّومَانِيُّ أورليانوس أَنْطَاكِيَةَ، وَرَحَّبَ بِهِ أَهْلُهَا وَطَلَبُوا مِنْهُ الْأَمَانَ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُمْ.

وَلَمْ يَبْقَ أورليانوس فِي أَنْطَاكِيَةَ سِوَى يَوْمٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِالزَّحْفِ وَرَاءَ زِنُوبْيَا وَجَيْشِهَا الْمُنْهَزِمِ، وَهُوَ يَأْمُلُ اللَّحَاقَ بِهَا وَالْقَضَاءَ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى تَدْمُرَ وَتَتَحَصَّنَ خَلْفَ أَسْوَارِهَا الْمَنِيعَةِ.

وَبَيْنَمَا زِنُوبْيَا تُوَاصِلُ انْسِحَابَهَا كَانَتْ تَطْلُبُ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يُمِدُّوهَا بِالْمُقَاتِلِينَ، فَانْضَمَّ إِلَيْهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ حَتَّى وَصَلَ تَعْدَادُ جَيْشِـــهَا سَـــبْعِينَ أَلْفًا

مِنَ الْمُشَـــاةِ وَالْفُرْسَانِ وَالْقَوَّاسِينَ وَالنَّبَّالِينَ. وَوَجَدَتْ فِي شَمَالِ حِمْصَ الْمَكَانَ الْمُنَاسِبَ لِقِتَالِ الرُّومِ، فَوَقَفَتْ بِجَيْشِهَا فِي انْتِظَارِهِمْ.

لَمْ تَخْلَعْ زِنُوبْيَا عَنْ نَفْسِهَا رِدَاءَ الْحَرْبِ، وَلَمْ تَطْلُبْ لِنَفْسِهَا الرَّاحَةَ، وَلَمْ تَتْرُكْ سِلَاحَهَا، ظَلَّتْ عَلَى فَرَسِهَا تَدُورُ بَيْنَ صُفُوفِ قُوَّاتِهَا تُحَفِّزُهُمْ عَلَى الْحَرْبِ، حَتَّى عَادَتْ إِلَيْهِمْ ثِقَتُهُمْ بِأَنْفُسِـــهِمْ وَصَارُوا تَوَّاقِينَ لِلْقِتَالِ ثَانِيَةً، وَوَقَفُوا فِي انْتِظَارِ أورليانوس عَازِمِينَ عَلَى النَّصْرِ.

وَحِينَ وَصَلَ أورليانوس بِجَيْشِـــهِ إِلَى حِمْصَ، فُوجِئَ بِالْجَيْشِ التَّدْمُرِيِّ فِي انْتِظَارِهِ، مُتَعَطِّشًـــا لِدِمَاءِ فُرْسَانِهِ، وَمَا إِنِ اصْطَفَّتِ الْجُيُوشُ فِي وَضْعِ الْقِتَالِ، حَتَّى صَاحَتْ زِنُوبْيَا آمِرَةً بِالانْتِقَامِ، وَانْطَلَقَتْ بِسَيْفِهَا نَحْوَ رِقَابِ الرُّومِ، فَانْطَلَقَ فُرْسَانُهَا خَلْفَهَا وَكُلُّهُمْ عَزِيمَةٌ لِأَنْ يَنْتَقِمُوا مِنْ هَزِيمَتِهِمْ فِي أَنْطَاكِيَةَ.

وَدَارَتْ دَائِرَةُ الْحَرْبِ، وَانْدَفَعَتْ رِمَاحُ وَسِهَامُ وَنِبَالُ التَّدْمُرِيِّينَ تَخْتَرِقُ أَجْسَادَ الرُّومِ، وَتَرَاقَصَتِ السُّيُوفُ الْعَرَبِيَّةُ تَحُزُّ رِقَابَهُمْ وَتَقْطَعُ أَوْصَالَهُمْ.

وَاضْطُرَّ الرُّومُ لِلْفِرَارِ وَالْهَرَبِ مِنْ أَمَامِ الْجَيْشِ التَّدْمُرِيِّ؛ يَنْجُونَ بِأَنْفُسِـــهِمْ مِنَ الْجَحِيمِ الَّذِي وَقَعُوا فِيهِ.

صَاحَتْ زَيْنَبُ فِي رِجَالِهَا تَأْمُرُهُمْ بِأَنْ يُطَارِدُوا الْفُلُولَ الْهَارِبَةَ مِنْ فُرْسَـــانِ الرُّومِ وَلَا يَدَعُونَ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَأَسْرَعَ الْفُرْسَانُ خَلْفَهُمْ يَحْمِلُونَ عَتَادَهُمُ الْحَرْبِيَّ الثَّقِيلَ مِنْ رِمَاحٍ وَنِبَالٍ وَسِهَامٍ فَوْقَ أَكْتَافِهِمْ وَعَلَى ظُهُورِهِمْ، وَرَاحُوا يُطَارِدُونَ جُنْدَ الرُّومِ، وَيَرْوُونَ الْأَرْضَ بِدِمَاءِ مَنْ يَطُولُهُ سِلَاحُهُمْ.

كَانَ قَيْصَرُ الـــرُّومِ يُقَاتِلُ بَيْنَ رِجَالِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُصَـــدِّقٍ لِمَا جَرَى لَهُمْ مِنْ هَزِيمَةٍ، وَكُلَّمَا رَأَى جُنُودَهُ يَتَسَـــاقَطُونَ تَحْتَ أَسْلِحَةِ التَّدْمُرِيِّينَ، تَمَلَّكَهُ الْحُزْنُ

وَرَاحَ يَتَضَرَّعُ إِلَى آلِهَتِهِ بِأَنْ تُنْقِذَهُ.

وَصَاحَتْ زَيْنَبُ ثَانِيَةً تَأْمُرُ فُرْسَانَهَا بِأَنْ يُحِيطُوا بِالرُّومِ.

لَا تُرِيدُ أَنْ يُفْلِتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

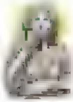
وَانْدَفَعَ الْفُرْسَانُ لِتَنْفِيذِ الْأَمْرِ.

وَتَذَكَّرَ أورليانوس مَا حَدَثَ في أَنْطَاكِيَةَ، فَأَمَرَ فُرْسَانَهُ بِإِجْهَادِ خَيْلِ الْعَرَبِ، وَالْهَرَبِ مِنْ أَمَامِهِمْ حَتَّى يَنْفَصِلُوا عَنْ فِرَقِ جُنُودِ الْمُشَاةِ ثُمَّ يَنْقَضَّ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرَعَ الْفُرْسَانُ بِالْهَرَبِ مِنَ الْمَيْدَانِ، وَأَسْرَعَ الْفُرْسَانُ الْعَرَبُ خَلْفَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا مَكِيدَةٌ مُدَبَّرَةٌ، وَلَمَّا صَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشَاةِ ثُغْرَةٌ كَبِيرَةٌ، قَرَّرَ أورليانوس اسْتِغْلَالَهَا، وَأَسْرَعَ بِتَغْيِيرِ خُطَّةِ قِتَالِهِ، وَأَمَرَ قُوَّاتِهِ بِالِالْتِفَافِ خَلْفَ الْفُرْسَانِ وَالرُّجُوعِ لِلْهُجُومِ عَلَى الْمُشَاةِ.

وَانْقَلَبَ الْحَالُ بِفُرْسَانِ الرُّومِ، فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا مُطَارَدِينَ مِنْ فُرْسَانِ تَدْمُرَ، صَارُوا يُهَاجِمُونَ مُشَاتَهَا، وَرَاحُوا يَقْتُلُونَ فِيهِمْ بِلَا رَحْمَةٍ.

وَحِينَ اسْتَطَاعَ قَائِدُ فُرْسَانِ تَدْمُرَ أَنْ يُلَمْلِمَ صُفُوفَهُ وَيَعُودَ سَرِيعًا لِيُنْقِذَ الْمُشَاةَ، كَانَ فُرْسَانُ الرُّومِ قَدِ انْتَصَرُوا عَلَيْهِمُ انْتِصَارًا سَاحِقًا، وَجَعَلُوا سَاحَةَ الْمَعْرَكَةِ مَفْرُوشَةً بِالْقَتْلَى، مِمَّا أَصَابَ زِنُوبْيَا بِالذُّعْرِ، وَقَرَّرَتِ الِانْسِحَابَ نَحْوَ تَدْمُرَ بِأَسْرَعِ مَا يُمْكِنُ، وَيَكْفِي مَا لَحِقَ بِجَيْشِهَا مِنْ خَسَائِرَ.

١٢



تَحَصَّنَتْ مَلِكَةُ الشَّرْقِ بِمَا بَقِيَ مَعَهَا مِنْ كَتَائِبِ جَيْشِهَا دَاخِلَ أَسْوَارِ تَدْمُرَ ذَاتِ الْقِلَاعِ الْحَصِينَةِ، وَبَدَأَتِ الِاسْتِعْدَادَاتِ لِصَدِّ هُجُومِ الرُّومَانِ، فَاكْتَشَفَتْ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ جُنُودِهَا الَّذِينَ يَدِينُونَ بِالدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ قَدْ فَرُّوا مِنْ صُفُوفِ الْجَيْشِ!

كَانَتْ زِنُوبْيَا تَعْرِفُ أَنَّ الْيَهُودَ يَكْرَهُونَهَا، وَيَكْرَهُونَ تَدْمُرَ الَّتِي يَعِيشُونَ عَلَى أَرْضِهَا مُنْذُ حَرَّرَهُمْ أُذَيْنَةُ مِنْ أَيْدِي الْفُرْسِ.

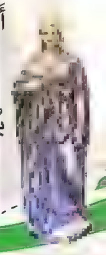
لَكِنَّهَا كَانَتْ تَأْمُلُ أَنْ يُفِيقُوا وَيَعُودُوا إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ.

فَلَمْ تُصَدِّقْ أَنَّ مُوَاطِنًا يَعِيشُ عَلَى أَيِّ أَرْضٍ يُحِبُّ أَعْدَاءَ وَطَنِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَبْنَاءِ وَطَنِهِ.

وَلَمْ تُصَدِّقْ أَنَّ الْيَهُودَ يُحِبُّونَ تِجَارَتَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَتَّجِرُونَ بِهَا مَعَ الْفُرْسِ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِمْ لِحُرِّيَّتِهِمْ فِي وَطَنِهِمُ الْحُرِّ.

وَلَمْ تَتَخَيَّلْ أَنَّ أَيَّ إِنْسَانٍ يَعِيشُ عَلَى تُرَابِ وَطَنٍ يَتَحَوَّلُ إِلَى عَدُوٍّ لَهُ، وَيَتَمَنَّى أَنْ يَحْتَلَّهُ الْغُرَبَاءُ.

وَفُوجِئَتْ أَنَّ حَاخَامَاتِ الْيَهُودِ الَّذِينَ سَمَحَتْ لَهُمْ بِأَنْ يَبْنُوا مَعَابِدَهُمْ، وَأَنْ يُمَارِسُوا شَعَائِرَ دِينِهِمْ، دُونَ أَيِّ مُضَايَقَاتٍ مِنْ أَصْحَابِ الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى أَوْ



تَعَصُّبٍ مِنْهُمْ ـ قَدْ رَاحُوا يُطْلِقُونَ إِشَـــاعَاتٍ بِأَنَّ الْآلِهَةَ قَدْ قَضَتْ بِهَلَاكِ تَدْمُرَ كَمَا أُهْلِكَتْ ثَمُودُ مِنْ قَبْلُ.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ تَدْمُرَ سَتَزُولُ لَا مَحَالَةَ، وَلِذَلِكَ فَجَيْشُهَا مَغْلُوبٌ مَغْلُوبٌ.

وَأَنَّهُمْ سَيَحْتَفِلُونَ يَوْمًا بِعِيدِ هَلَاكِهَا.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَقْتٌ لِمُحَارَبَةِ شَائِعَاتِ حَاخَامَاتِ الْيَهُودِ، فَهِيَ لَنْ تُؤَثِّرَ إِلَّا في مَنْ يَحْمِلُ دِيَانَتَهُمْ، وَلِحُسْـــنِ حَظِّهَا أَنَّ الْجُنُودَ مِنْهُمْ قَدْ هَرَبُوا مِنَ الْخِدْمَةِ في الْجَيْشِ.

وَقَدْ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَتْرُكَ كُلَّ هَـــذَا وَرَاءَ ظَهْرِهَا، وَأَنْ تَعْمَلَ أَوَّلًا عَلَى تَضْمِيدِ جِرَاحِ جُنُودِهَا، وَإِعَادَةِ ثِقَتِهِمْ بِأَنْفُسِـــهِمْ إِلَيْهِمْ؛ حَتَّى يَسْـــتَطِيعُوا الْقِتَالَ مَرَّةً أُخْرَى، فَجَيْشُ الرُّومَانِ قَادِمٌ إِلَيْهِمْ لَا مَحَالَةَ.

جَمَعَتْ زِنُوبْيَا قُوَّادَهَا، وَطَالَبَتْهُمْ أَنْ يَثِقُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَبِقُدُرَاتِهِمُ الَّتِي سَتَصِلُ بِهِمْ إِلَى النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَهُنَاكَ دَائِمًا الْفَرْقُ الْوَاسِـــعُ بَيْنَ مَنْ يُقَاتِلُ دِفَاعًا عَنْ وَطَنِهِ وَبَيْنَ مَنْ يُقَاتِلُ لِيَغْتَصِـــبَ وَطَنًا؛ فَالْأَوَّلُ أَقْوَى وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ الْعَدَدِ وَالْعَتَادِ، وَظَلَّتْ تُحَادِثُهُمْ عَنْ أَحْدَاثٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّارِيخِ كُسِـــرَتْ فِيهَا الْجُيُوشُ ثُـــمَّ قَامَتْ وَانْتَصَرَتْ في النِّهَايَةِ، وَحِينَ أَدْرَكَتْ أَنَّهُمْ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْبَأْسِ في مُوَاجَهَةِ عَدُوِّهِمْ، صَاحَبَتْهُمْ وَهِيَ بِلِبَاسِ الْحَرْبِ في جَوْلَاتٍ عَلَى الْجُنُودِ.

لَمْ تَبْذُلِ الْمَلِكَةُ، وَلَا قَادَتُهَا جُهْدًا كَبِيرًا حَتَّى اسْتَعَادَتْ قُوَّاتُ الْجَيْشِ ثِقَتَهَا بِنَفْسِهَا، وَزَرَعُوا فِيهِمْ رَغْبَةَ الِانْتِقَامِ مِنْ هَزَائِمِهِمُ السَّابِقَةِ، وَصَارُوا جَمِيعًا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْمَوْتِ في سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنْ مَدِينَتِهِمْ، وَكِبْرِيَاءِ مَلِيكَتِهِمْ.

وَحِينَئِذٍ أَشْرَفَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى تَوْزِيعِ الْقُوَّاتِ عَلَى الْمَوَاقِعِ الدِّفَاعِيَّةِ، وَوَضَعَتِ الْمَنْجَنِيقَاتِ الَّتِي تَقْذِفُ الْحِجَارَةَ وَكُرَاتِ النَّارِ الْمُشْتَعِلَةَ فَوْقَ الْأَسْوَارِ، وَأَمَرَتْ أَنْ يَكْمُنَ رُمَاةُ السِّهَامِ وَالنِّبَالِ وَالْحِرَابِ دَاخِلَ الْحُصُونِ وَالْقِلَاعِ حَتَّى أَبْرَاجِ الْقُبُورِ الْعَالِيَةِ.

صَارَتْ تَدْمُرُ كُلُّهَا حَامِيَةً عَسْكَرِيَّةً، لَا يَقْتَرِبُ طَائِرٌ فِي الْجَوِّ أَوْ دَابَّةٌ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَسْوَارِهَا.. إِلَّا وَرَآهُ جُنُودُهَا وَقَتَلُوهُ، فَتَفَرَّغَتِ الْمَلِكَةُ لِلْإِشْرَافِ عَلَى تَخْزِينِ الْمُؤَنِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَوَقُودٍ وَكُلِّ احْتِيَاجَاتِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ اسْتِعْدَادًا لِحِصَارٍ طَوِيلٍ.



١٣



وَصَلَتْ أَنْبَاءُ تَحَصُّنِ زِنُوبْيَا وَرِجَالِهَا دَاخِلَ أَسْوَارِ تَدْمُرَ إِلَى أورليانوس، فَقَرَّرَ أَنْ يَتْرُكَ حِمْصَ وَيَزْحَفَ بِجَيْشِهِ نَحْوَ تَدْمُرَ لِتَحْطِيمِ أَسْوَارِهَا وَحُصُونِهَا، وَالْقَضَاءِ عَلَى مَنْ تَبَقَّى مِنْ جَيْشِـــهَا، فَلَنْ يَنْعَمَ بِالرَّاحَةِ وَالسَّلَامِ إِلَّا بَعْدَ الْقَضَاءِ عَلَى زِنُوبْيَا تِلْكَ الَّتِي تَحْلُمُ بِالْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِـــيِّ الْعَرْشِ فِي رُومَا، وَأَمَرَ جُيُوشَهُ بِالزَّحْفِ نَحْوَ تَدْمُرَ.

كَانَ الْوَقْتُ صَيْفًا، وَحَرَارَةُ الشَّـــمْسِ تَتَلَظَّى مِنْ حَوْلِهِمْ، وَرَاحَ الصَّهْدُ يُلْهِبُ أَجْسَادَ جُنُودِ رُومَا الَّذِينَ لَمْ يَعْتَادُوا مِثْلَ هَذَا الْمُنَاخِ الصَّحْرَاوِيِّ، وَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْعَوَاصِفُ الرَّمْلِيَّةُ تُعْمِي أَبْصَارَهُمْ، وَصَارَ السَّفَرُ مِنْ حِمْصَ إِلَى تَدْمُرَ أَصْعَبَ عَلَيْهِـــمْ مِنَ الْقِتَالِ، وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ صَوْتُ أورليانوس لِلتَّخَاذُلِ أَوِ الْبُطْءِ فِي الْحَرَكَةِ، فَقَدْ رَاحَ يَخْتَرِقُ آذَانَهُمْ يَدْفَعُهُمْ إِلَى التَّقَـــدُّمِ، فَيُضْطَرُّونَ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْحَرَكَةِ وَعِنَادِ الطَّبِيعَةِ.

وَحِينَ وَصَلُوا إِلَى تَدْمُرَ، وَرَأَوْا أَسْـــوَارَهَا الْعَالِيَةَ، وَأَبْرَاجَهَا الْحَصِينَةَ، أَدْرَكُوا أَنَّهُ مِنَ الْمُسْـــتَحِيلِ اقْتِحَامُ أَبْوَابِهَا، وَرَأَى أورليانوس أَنَّهُ لَا سَـــبِيلَ أَمَامَهُ إِلَّا حِصَارَهَا. وَأَمَرَ جُنُودَهُ بِالِالْتِفَافِ حَوْلَ الْأَسْوَارِ وَحِصَارِ أَبْوَابِهَا، وَمَنْعِ أَيٍّ مِنْ حُلَفَاءِ زِنُوبْيَا مِنَ الِاقْتِرَابِ مِنَ الْأَبْوَابِ حَامِلِينَ لَهَا الْإِمْدَادَاتِ مِنَ الْمُؤَنِ، عَلَى أَمَلِ أَنْ يَنْفَدَ مَا عِنْدَهَا، وَتُضْطَرَّ إِلَى الِاسْتِسْلَامِ وَفَتْحِ الْأَبْوَابِ.



لَمْ يَجْنِ أورليانوس مِنْ وَرَاءِ حِصَارِهِ إِلَّا سُخْرِيَةَ التَّدْمُرِيِّينَ الْمُتَحَصِّنِينَ فَوْقَ الْأَسْوَارِ، وَسِوَى الْأَحْجَارِ الضَّخْمَةِ وَكُرَاتِ اللَّهَبِ وَالسِّهَامِ وَالرِّمَاحِ الَّتِي تَتَسَاقَطُ عَلَيْهِمْ، فَتَكْسِرُ الْحِجَارَةُ عِظَامَهُمْ، وَتَخْتَرِقُ السِّهَامُ وَالرِّمَاحُ أَجْسَادَهُمْ، وَتَحْرِقُ النِّيرَانُ خِيَامَهُمْ وَعَتَادَهُمْ وَتَتْرُكُهُمْ فِي الْعَرَاءِ.

وَمَا زَادَ مِنْ شَقَائِهِمْ، وَأَقْلَقَ رَاحَتَهُمْ، تِلْكَ الْهَجَمَاتُ الَّتِي كَانَ يَقُومُ بِهَا فُرْسَانُ قَبَائِلِ الْبَادِيَةِ، الَّتِي تُرْسِلُ فُرْسَانَهَا فِي مَعَارِكَ خَاطِفَةٍ، يَهْجُمُونَ ثُمَّ يَفِرُّونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ مُلَاحَقَتَهُمْ.

رَكِبَ الْغَضَبُ أورليانوس الَّـــذِي كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَنْجَحَ الْحِصَارُ، وَتَنْفَدَ الْمُؤَنُ دَاخِلَ أَسْوَارِ تَدْمُرَ وَيَجُوعَ أَهْلُهَا وَيَيْأَسُوا مِنْ قُدْرَةِ جَيْشِهِمْ عَلَى النَّصْرِ، فَيَثُورُوا ضِدَّ مَلِكَتِهِمْ، فَتُضْطَرَّ الْمَلِكَةُ إِلَى فَتْحِ الْأَبْوَابِ لِلتَّفَاوُضِ أَوِ الِاسْتِسْلَامِ.

لَكِنَّ الْمُؤَنَ فِي الدَّاخِلِ لَمْ تَنْفَدْ.

وَلَمْ يَفْقِدِ التَّدْمُرِيُّونَ ثِقَتَهُمْ بِقُدُرَاتِ جَيْشِهِمُ الْكَامِنِ فَوْقَ الْأَسْوَارِ وَفِي الْقِلَاعِ.

وَلَمْ يَثُرْ أَهْلُ تَدْمُرَ ضِدَّ مَلِكَتِهِمْ.

وَلَمْ تُضْطَرَّ إِلَى فَتْحِ الْأَبْوَابِ وَالِاسْتِسْلَامِ.

وَصَارَ الْحَالُ عَلَى عَكْسِ مَا كَانَ يَتَوَقَّعُهُ أورليانوس.

وَلَمْ يَنْجَحِ الْحِصَارُ.

وَزَادَتْ ثِقَةُ الْجَيْشِ التَّدْمُرِيِّ بِنَفْسِهِ وَبِقُدْرَتِهِ عَلَى الصُّمُودِ.

وَكُلَّ يَوْمٍ يَزِيدُ مِمَّا يَقْذِفُهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحِجَارَةِ وَكُرَاتِ النَّارِ وَالسِّهَامِ وَالنِّبَالِ وَالْحِرَابِ، كَمَا لَوْ كَانَتِ الْمُؤَنُ تَأْتِيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ.

وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ، وَالرُّومَانُ يَخْسَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ جُنُودِهِمْ وَعَتَادِهِمْ وَمُؤَنِهِمْ، وَلَا يَخْسَرُ التَّدْمُرِيُّونَ مُقَاتِلًا وَاحِدًا.

وَبَلَغَ الْأَمْرُ مَجْلِسَ شُيُوخِ رُومَا، فَرَاحُوا يَسْخَرُونَ مِنْ عَجْزِ أورليانوس عَلَى التَّغَلُّبِ عَلَى امْرَأَةٍ وَاحْتِلَالِ مَدِينَةٍ صَحْرَاوِيَّةٍ، وَبَلَغَهُ مَا يَقُولُ الرِّجَالُ فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ.. فَأَرْسَلَ يَقُولُ لَهُمْ:

- يَتَحَدَّثُ الرُّومَانُ أَنِّي أُحَارِبُ امْرَأَةً، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْخَطَرَ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَخَفَّ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ لَوْ كُنْتُ أُحَارِبُ رَجُلًا؛ لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيَّ أَنْ أَصِفَ اسْتِعْدَادَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ لِلْحَرْبِ، وَأَنْ أُقَدِّرَ مَا يُوجَدُ فِي عَاصِمَتِهَا مِنْ قِسِيٍّ وَسِهَامٍ وَحِجَارَةٍ لِلْمَنْجَنِيقِ، فَلَيْسَ فِي السُّورِ مَكَانٌ إِلَّا وَهُوَ مُحَصَّنٌ بِصَفَّيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْمَنْجَنِيقَاتِ، هَذَا غَيْرَ آلَاتِ رَمْيِ النِّيرَانِ.

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ يَقُولُ:

- إِنَّ زِنُوبْيَا لَا تُقَاتِلُ قِتَالَ امْرَأَةٍ، لَكِنَّهَا تُقَاتِلُ أَفْضَلَ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ.

ثُمَّ كَتَبَ مُؤَكِّدًا وَقَالَ:

- وَفِي ظَنِّي أَنَّنِي لَمْ أُقَابِلْ عَدُوًّا مِثْلَهَا! لَكِنِّي سَأَنْتَصِرُ.

وَمَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَالْمَدِينَةُ صَامِدَةٌ، وَلَمْ يَنْتَصِرْ أورليانوس، وَلَمْ تَنْفَدْ أَحْجَارُ الْمَنْجَنِيقِ، وَلَمْ تَكُفَّ كُرَاتُ اللَّهَبِ مِنَ السُّقُوطِ عَلَيْهِمْ كَالشُّهُبِ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ سَيْلُ السِّهَامِ وَالنِّبَالِ الَّتِي يَقْذِفُهَا الْمُقَاتِلُونَ مِنْ فَوْقِ الْأَسْوَارِ. وَفِي كُلِّ يَوْمٍ.. يَفْقِدُ الْكَثِيرَ مِنْ جُنُودِهِ.

لَمْ يَجِدْ أورليانوس إِلَّا أَنْ يُرْسِلَ لِزِنُوبْيَا يُهَدِّدُهَا، وَيَقُولُ لَهَا:

- مِنَ الْقَيْصَرِ أورليانوس مَلِكِ الْعَالَمِ الرُّومَانِيِّ وَسُلْطَانِ الْمَشْرِقِ، إِلَى زَيْنَبَ وَأَصْحَابِهَا، سَلَامٌ: لَقَدْ طَالَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ، وَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكِ مَا أَدْعُوكِ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَهُوَ أَنْ تَخْضَعِي لِلرُّومَانِ وَتَسْتَسْلِمِي لِي، فَإِنِ اسْتَسْلَمْتِ نِلْتِ سَلَامَتَكِ وَسَلَامَةَ أَصْحَابِكِ، وَأَصْبَحَ بِإِمْكَانِكِ أَنْ تَعِيشِي

وَأُسْرَتُكِ فِي مَدِينَةٍ يُعَيِّنُهَا لَكِ شُيُوخُ رُومَا الْمُحْتَرَمُونَ، أَمَّا تَدْمُرُ.. فَأَنَا أَتَعَهَّدُ بِأَنْ تَظَلَّ مُحْتَفِظَةً بِحُقُوقِهَا السِّيَاسِــيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ وَالتِّجَارِيَّةِ جَمِيعًا، وَعَلَيْكِ أَنْ تُسَلِّمِي أَمْوَالَكِ وَجَوَاهِرَكِ وَمَتَاعَكِ إِلَى خَزِينَةِ رُومَا.

وَحَمَلَ رَسُــولُ أورليانوس الرِّسَالَةَ، وَلِلرَّسُــولِ حُقُوقٌ فَتَحَتْ لَهُ الْأَبْوَابَ، وَصَاحَبَهُ عَدَدٌ مِنْ حُرَّاسِ السُّورِ إِلَى حُرَّاسِ الْمَلِكَةِ الَّتِي أَخَذَتْ مِنْهُ الرِّسَالَةَ وَرَاحَتْ تَقْرَؤُهَا، وَحِينَ انْتَهَتْ، ضَحِكَتْ سَاخِرَةً مِمَّا قَرَأَتْ، وَقَالَتْ لِمُسْتَشَارِهَا:

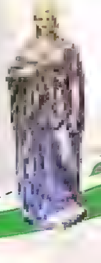
ـ اكْتُبْ: «مِنْ زِنُوبْيَا سُــلْطَانَةِ الشَّــرْقِ إِلَى أورليانوس أغسطس: لَمْ يَتَجَاسَرْ أَحَدٌ قَبْلَكَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بِطَلَبٍ مِثْلَ طَلَبِكَ، أَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَسْــتَطِيعُ أَنْ تَغْنَمَ شَيْئًا فِي الْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ شَجَاعَةٍ وَثَبَاتٍ وَاسْتِحْقَاقٍ، وَأَنَا لَا أَدْرِي كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى طَلَبِ اسْتِسْلَامِي وَأَنْتَ تَفْنَى فِي حِصَارِ مَدِينَتِي الْمَنِيعَةِ؟! أَتَجْهَلُ أَنَّ كِلِيُوبَاتْرَا آثَرَتِ الْمَوْتَ عَلَى أَنْ تَحْيَا أَسِيرَةً؟! لَا تَنْتَظِرْ مِنِّي شَيْئًا، وَأُحِبُّ أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَنَّ حَلِيفَنَا مَلِكَ الْفُرْسِ سَيُرْسِلُ إِلَيَّ جُيُوشًا، فَلْتَرْتَجِفْ رُومَا لِمَا سَيَحْدُثُ لِجُنُودِهَا».

صَمَتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَتْ:

ـ اكْتُبْ: «إِنَّ تَدْمُرَ تَهْوَى الْحَرْبَ، وَلَا تَخْشَــى الْجُوعَ، كَمَا أَنَّ الْأَرْمَنَ يَفْدُونَنِي جَمِيعًا بِأَرْوَاحِهِمْ، لَقَدْ هَزَمَكَ أَفْرَادٌ مِنْهُمْ، فَمَاذَا يَكُونُ حَالُكَ إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَيْكَ؟! فَلَا رَيْبَ أَنَّكَ تُجَرِّدُ نَفْسَكَ مِنْ كِبْرِيَائِهَا عِنْدَمَا تَرَى جَحَافِلَهُمْ تُحِيطُ بِكَ، ذَلِكَ الْكِبْرِيَاءُ الْخَطِيرُ الَّذِي دَفَعَكَ لِطَلَبِ اسْتِسْلَامِي، وَكَانَ النَّصْرُ حَلِيفَكَ».

وَأَمَرَتْ بِأَنْ تُسَلَّمَ الرِّسَالَةُ إِلَى رَسُولِ الْقَيْصَرِ.

أَخَذَ رَسُولُ الْقَيْصَرِ الرِّسَالَةَ وَعَادَ إِلَى مُعَسْــكَرِهِ، وَسَلَّمَهَا إِلَى أورليانوس، وَحِينَ قَرَأَهَا جُنَّتْ شَــيَاطِينُهُ وَرَاحَ يُزَمْجِرُ أَمَامَ قُوَّادِهِ، وَيُقْسِــمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُحَطِّمَ طُغْيَانَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ. وَأَمَرَ بِمُوَاصَلَةِ الْحِصَارِ.



وَجَلَسَ يَتَفَكَّرُ فِيمَا يَفْعَلُ، فَرَأَى أَنَّ زِنُوبْيَا تَعْتَمِدُ عَلَى قَبَائِلِ الْبَادِيَةِ فِي إِمْدَادِهَا بِالْمُؤَنِ وَالسِّلَاحِ، وَهَذَا يُطِيلُ قُدْرَتَهَا عَلَى تَحَمُّلِ الْحِصَارِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْقَبَائِلَ تُغِيرُ عَلَيْهِ غَارَاتٍ خَاطِفَةً تَقْتُلُ جُنُودَهُ وَتَحْرِقُ مُؤَنَهُ وَتَهْرُبُ، فَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَحْرِمَ زِنُوبْيَا مِنْ مَصَادِرِ إِمْدَادَاتِهَا مِنَ الْمُؤَنِ وَالْعَتَادِ وَالسِّلَاحِ، وَأَنْ يَأْمَنَ هَجَمَاتِ فُرْسَانِ قَبَائِلِ الْبَادِيَةِ عَلَيْهِ، وَقَرَّرَ أَنْ يُحَاوِلَ أَنْ يَشْتَرِيَ حِيَادَ هَذِهِ الْقَبَائِلِ بِالْمَالِ.

أَرْسَلَ أورليانوس إِلَى رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ الْبَدَوِيَّةِ مَنْ يَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْمَالَ فِي مُقَابِلِ أَلَّا يُهَاجِمُوهُ، وَأَنْ يَقْطَعُوا إِمْدَادَاتِهِمْ عَنْ زِنُوبْيَا.

وَافَقَ الْبَدْوُ عَلَى عَرْضِ أورليانوس، وَكَانَ رَأْيُهُمْ أَنَّ فِي الِاتِّفَاقِ مَعَ الرُّومَانِ مَالًا سَيَجْنُونَهُ، وَسَلَامَةً مِنْ أَخْطَارِ حُرُوبٍ تَطُولُهُمْ، فَمَا الَّذِي سَيَجْنُونَهُ مِنَ الْمَلِكَةِ الْمُحَاصَرَةِ، الَّتِي لَمْ يَبْقَ مِنْ مُلْكِهَا غَيْرُ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَثَرْوَةٍ سَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِمَا الرُّومَانُ؟! وَحَتَّى إِنْ بَقِيَتْ لَهَا أَمْوَالُهَا فَلَنْ يُصِيبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ مِثْلُ مَا سَيَأْخُذُونَهُ مِنَ الْقَيْصَرِ.

اشْتَرَى الْقَيْصَرُ رُؤَسَاءَ الْقَبَائِلِ بِالْمَالِ، وَأَمِنَ شَرَّ هَجَمَاتِهِمُ الَّتِي كَانَ يَعْمَلُ لَهَا أَلْفَ حِسَابٍ، وَكَانَتْ تُكَلِّفُهُ خَسَائِرَ كَبِيرَةً. وَتَأَكَّدَ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِ زِنُوبْيَا بِالْمُؤَنِ، وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَهُ إِلَّا أَنْ يُؤَمِّنَ الزَّادَ لِجُنُودِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى جَمِيعِ الْمُدُنِ السُّورِيَّةِ الَّتِي فَتَحَهَا فِي طَرِيقِهِ إِلَى تَدْمُرَ، يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يُمِدُّوهُ بِالزَّادِ وَالْعَتَادِ.

سَارَعَتِ الْمُدُنُ السُّورِيَّةُ بِإِرْسَالِ مَا يُرِيدُ أورليانوس، وَتَغَيَّرَ حَالُ الْجُنُودِ الرُّومَانِ؛ صَارَ لَدَيْهِمْ وَفْرَةٌ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُهَدَّدِينَ بِالْجُوعِ، وَصَارُوا يَأْكُلُونَ حَتَّى يَشْبَعُوا، وَيَشْرَبُونَ حَتَّى يَرْتَوُوا، فَانْتَعَشَتْ ذَاكِرَةُ الشَّجَاعَةِ لَدَيْهِمْ، وَعَادَ لَهُمْ حُلْمُ الِانْتِصَارِ.

١٤



كَانَتْ زِنُوبْيَا تُخَطِّطُ أَنْ يَطُولَ حِصَارُ أورليانوس وَجُنُودِهِ لِأَسْوَارِ مَدِينَتِهَا، وَأَنْ يُوَاصِلَ فُرْسَانُهَا رَمْيَهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَكُرَاتِ اللَّهَبِ وَالسِّهَامِ وَالنِّبَالِ وَالرِّمَاحِ وَيُوقِعُوا بِهِمُ الْخَسَائِرَ كُلَّ يَوْمٍ، بَيْنَمَا هُمْ في أَمَانٍ فَوْقَ الْأَسْوَارِ وَفِي دَاخِلِ الْأَبْرَاجِ.

وَكَانَتْ تَظُنُّ أَنَّهُ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ، سَيَنْفَدُ مَا مَعَ الرُّومَانِ مِنْ مَؤُونَةٍ وَعَتَادٍ، بَيْنَمَا هِيَ صَامِدَةٌ في الدَّاخِلِ، لَدَيْهَا كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤَنِ وَالْعَتَادِ.

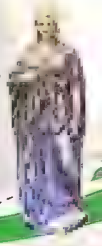
وَكَانَتْ تَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَطُولَ الْحِصَارُ وَيَنْفَدَ مَا لَدَى الْقَيْصَرِ مِنَ الْمُؤَنِ وَالْعَتَادِ، فَيَيْأَسَ مِنْ فَتْحِ الْمَدِينَةِ، وَيُضْطَرَّ في النِّهَايَةِ إِلَى الرُّجُوعِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ. لَكِنَّهَا حِينَ رَأَتِ الْمَوَادَّ الْغِذَائِيَّةَ تَأْتِي لِلرُّومَانِ مِنَ الشَّامِ بِمَدَدٍ عَظِيمٍ، وَكَفَّتْ قَبَائِلُ الْبَادِيَةِ عَنْ إِمْدَادِهَا بِالْمُؤَنِ، أَدْرَكَتْ أَنَّ خُطَّتَهَا لَنْ تَنْجَحَ، وَأَنَّ شَعْبَهَا صَارَ مُهَدَّدًا بِالْجُوعِ، فَأَمَرَتْ بِعَقْدِ اجْتِمَاعٍ لِمَجْلِسِ شُيُوخِ الْمَدِينَةِ وَقَادَةِ قُوَّاتِهَا، وَقَالَتْ لَهُمْ:

ـ لَقَدْ بَاعَتْنَا قَبَائِلُ الْبَادِيَةِ، وَلَنْ تُمِدَّنَا بِالْمُؤَنِ وَلَا السِّلَاحِ! وَلَنْ تُغِيرَ عَلَى الرُّومِ بَعْدَ الْآنَ! وَالْمُؤَنُ قَدْ قَارَبَتْ عَلَى النَّفَادِ، فَمَاذَا تَرَوْنَ؟

صَاحَ شَيْخٌ وَقَالَ:

ـ إِذَنْ فَهِيَ الْحَرْبُ.

رَدَّ أَحَدُ الْقُوَّادِ وَقَالَ:



ـ وَضْعُنَا الْعَسْكَرِيُّ الْآنَ لَا يَسْمَحُ لَنَا بِالْمُوَاجَهَةِ.

وَقَالَ قَائِدٌ ثَانٍ:

ـ وَالْمُشْكِلَةُ أَنَّنَا سَنُعَانِي قَرِيبًا نَقْصًا في الطَّعَامِ وَالْعَتَادِ.

قَالَتْ زِنُوبْيَا بِحَزْمٍ:

ـ لَنْ أَسْمَحَ أَبَدًا بِأَنْ يَجُوعَ مُوَاطِنٌ وَاحِدٌ مِنْ شَعْبِي.

ثَارَ شَيْخٌ ثَالِثٌ وَقَالَ مُخَاطِبًا زِنُوبْيَا:

ـ إِذَا قُلْنَا هِيَ الْحَرْبُ يَرْفُضُ قَادَتُكِ، إِذَنْ لَا بَدِيلَ عَنِ اسْتِمْرَارِ التَّحَصُّنِ دَاخِلَ الْأَسْوَارِ، وَتَقُولِينَ أَنْتِ.. إِنَّكِ لَنْ تَسْمَحِي بِأَنْ يَجُوعَ مُوَاطِنٌ مِنْ شَعْبِكِ، فَكَيْفَ لَا نَجُوعُ وَالْمُؤَنُ قَدْ قَارَبَتْ عَلَى النَّفَادِ، وَقَبَائِلُ الْبَادِيَةِ قَدْ بَاعَتْنَا لِلرُّومَانِ؟!

فَكَّرَتْ زِنُوبْيَا قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَتْ:

ـ تَعْرِفُونَ أَنَّ سَــــابُورَ الَّذِي عَقَدْنَا مَعَهُ الْمُعَاهَدَاتِ قَدْ مَاتَ، وَجَاءَ هُرْمُزُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ خَائِرُ الْقُوَى، لِذَلِكَ لَنْ تُجْدِيَ مَعَهُ الرُّسُلُ، لَا بُدَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ بِنَفْسِي!!

وَبِرَغْمِ أَنَّ قَرَارًا مِثْلَ هَذَا فِيهِ الْكَثِيرُ مِنَ التَّهَوُّرِ وَالِانْدِفَاعِ، لَكِنَّ مَصْلَحَةَ أَبْنَاءِ تَدْمُرَ جَعَلَتْ مَجْلِسَ الشُّيُوخِ وَقَادَةَ الْقُوَّاتِ الْمُقَاتِلَةِ يُوَافِقُونَ عَلَيْهِ.

صَمَتُوا جَمِيعًا، وَمَرَّتْ دَقَائِقُ حَسِبَهَا الْجَمِيعُ دَهْرًا، وَأَخِيرًا نَطَقَ أَحَدُ الْقَادَةِ وَقَالَ:

ـ لِيَصْحَبْكِ بَعْضٌ مِنَ الْفُرْسَانِ وَالنَّبَّالَةِ؛ لِحِمَايَتِكِ مِنْ أَخْطَارِ الطَّرِيقِ.

حَسَمَتْ زِنُوبْيَا الْمَوْقِفَ، وَقَالَتْ بِحَسْمٍ:

ـ سَأَذْهَبُ وَحْدِي!

ثُمَّ قَالَتْ فِي هُدُوءٍ:

- كُلُّ فَـــارِسٍ أَوْ نَبَّالٍ مَطْلُوبٌ هُنَا أَكْثَرُ. إِنَّ حِمَايَةَ تَدْمُرَ أَهَمُّ مِنْ حِمَايَتِي، كَمَا أَنَّنِي قَادِرَةٌ عَلَى حِمَايَةِ نَفْسِي.

وَكَانَ قَرَارُ الْجَمِيعِ أَنْ تَنْتَظِرَ الْمَلِكَةُ حَتَّى ظَلَامِ اللَّيْلِ.

دَبَّرَتِ الْمَلِكَةُ خُطَّتَهَا بِتَكَتُّمٍ وَسِرِّيَّةٍ، فَذَهَبَتْ إِلَى أَحَدِ مَعَابِدِ الْمَدِينَةِ، وَكَمَنَتْ فِيهِ حَتَّى جَاءَ اللَّيْلُ، وَفِي الظَّلَامِ، تَسَـــلَّلَتْ عَبْرَ بَابٍ سِرِّيٍّ يُؤَدِّي إِلَى نَفَقٍ تَحْتَ الْأَسْوَارِ، يَخْرُجُ بِهَا بَعِيدًا عَنِ الْمَدِينَةِ، وَخَلْفَ قُوَّاتِ الْحِصَارِ، وَهُنَاكَ، كَانَ أَحَدُ الْفُرْسَانِ فِي انْتِظَارِهَا بِوَاحِدَةٍ مِنَ النُّوقِ سَرِيعَةِ الْعَدْوِ، فَقَفَزَتْ فَوْقَهَا، وَانْطَلَقَتِ النَّاقَةُ تَطْوِي الطَّرِيقَ نَحْوَ الْفُرَاتِ، لِتَعْبُرَهُ الْمَلِكَةُ إِلَى الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ.

وَحِيـــنَ جَاءَ الصَّبَاحُ، كَانَ الْيَهُودُ فِي تَدْمُرَ يَتَهَامَسُـــونَ، لَقَدْ خَرَجَتْ زِنُوبْيَا تَطْلُبُ نَجْدَةَ الْفُرْسِ.. أَسْـــرَعُوا بِالِاجْتِمَاعِ فِي أَحَدِ مَعَابِدِهِمُ الَّتِي سَـــمَحَتْ لَهُمْ زِنُوبْيَا بِإِقَامَتِهَا وَجَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ.

هُمْ يَكْرَهُونَ زِنُوبْيَا كَمَا كَرِهُوا زَوْجَهَا أُذَيْنَةَ مِنْ قَبْلُ، وَقَدْ أَطْلَقُوا الْإِشَاعَاتِ الَّتِي تُنْبِئُ بِزَوَالِ تَدْمُرَ وَأَنَّ هَذَا أَمْرُ اللَّهِ، وَقَالُوا لِبَعْضِهِمْ:

- لَا بُدَّ أَنْ نَعْمَلَ عَلَى أَنْ نُؤَكِّدَ صِدْقَنَا، وَصِدْقَ آلِهَتِنَا.

لَا بُدَّ أَنْ يُغْلَبَ الْجَيْشُ التَّدْمُرِيُّ، وَأَنْ تُدَمَّرَ تَدْمُرُ كَمَا دُمِّرَتْ ثَمُودُ مِنْ قَبْلُ.

لَا بُدَّ أَنْ نَسْتَعِيدَ ثَرَوَاتِنَا الَّتِي ضَاعَتْ بِتَغَلُّبِ أُذَيْنَةَ وَزِنُوبْيَا عَلَى الرُّومِ وَالْفُرْسِ.

لَا بُدَّ مِنَ الِانْتِقَامِ.

وَاتَّفَقَ الْيَهُودُ عَلَى أَنْ يُرْسِـــلُوا نَبَأَ خُـــرُوجِ زِنُوبْيَا فِي طَرِيقِهَا لِعُبُورِ الْفُرَاتِ لِتَطْلُبَ نَجْدَةَ الْفُرْسِ إِلَى قَيْصَرِ الرُّومِ.

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى أورليانوس، فَأَسْـــرَعَ وَجَمَعَ قُوَّادَهُ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوهُ بِخِيرَةِ فُرْسَانِهِمْ وَأَسْـــرَعِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِتَتَبُّعِ أَثَرِ زِنُوبْيَا وَالْقَبْضِ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ

تَعْبُرَ الْفُرَاتَ مَهْمَا كَلَّفَهُمُ الْأَمْرُ.

وَانْطَلَقَ فُرْسَانُ الرُّومِ فِي أَثَرِ زِنُوبْيَا، الَّتِي تَسْبِقُهُمْ بِمَسِيرَةِ لَيْلَةٍ وَمَا مَرَّ مِنَ النَّهَارِ، وَحَالَفَهَا الْحَظُّ وَوَصَلَتْ بِهَا النَّاقَةُ إِلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ، فَتَرَجَّلَتْ مِنْ فَوْقِهَا، وَصَاحَتْ بِصَاحِبِ زَوْرَقٍ فِي عُرْضِ النَّهْرِ، أَنْ يَأْتِيَ لِيَعْبُرَ بِهَا إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ، وَوَقَفَتْ فِي انْتِظَارِ أَنْ يَأْتِيَ.



لَاحَتْ مِنْهَا الْتِفَاتَةٌ إِلَى الْوَرَاءِ، وَإِذَا بِهَا تَرَى فُرْسَانًا تَنْهَبُ خَيْلُهُمُ الْأَرْضَ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا، صَاحَتْ بِصَاحِبِ الزَّوْرَقِ أَنْ يُسْرِعَ إِلَيْهَا، وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ الْمَرْفَأ، وَقَبْلَ أَنْ تَهُمَّ بِوَضْعِ نَفْسِهَا فِي الزَّوْرَقِ، لِيَنْقُلَهَا إِلَى الشَّاطِئِ الثَّانِي مِنْ نَهْرِ الْفُرَاتِ، كَانَ الْفُرْسَانُ يَقْبِضُونَ عَلَيْهَا.

وَضَعَ فُرْسَانُ الْقَيْصَرِ زِنُوبْيَا فَوْقَ نَاقَتِهَا، وَعَادُوا بِهَا إِلَى تَدْمُرَ، قَدَّمُوهَا إِلَى أورليانوس، الَّذِي أَقْبَلَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ لَهَا سَاخِرًا:

ـ صِرْتِ فِي قَبْضَتِنَا يَا زَيْنَبُ، أَلَسْتِ أَنْتِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكِ الْجَسَارَةُ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرِي شَأْنَ قَيْصَرٍ رُومَانِيٍّ؟!!

قَالَتْ فِي كِبْرِيَاءٍ:

ـ نَعَمْ، إِنِّي أُقِرُّ لَكَ الْآنَ بِأَنَّكَ قَيْصَرٌ، وَقَدْ تَغَلَّبْتَ عَلَيَّ. أَنَا الْآنَ مَلِكَةٌ أَسِيرَةٌ.



ثُمَّ صَمَتَتْ زِنُوبْيَا، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ قَادَةِ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ يُطَالِبُونَ بِقَتْلِهَا، لَكِنَّ أورليانوس أَسْكَتَهُمْ بِإِشَارَةٍ مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ لَهُمْ:

ـ مُنْذُ مَتَى وَنَحْنُ نَقْتُلُ أَسِيرًا؟!

عَادَ الْقَادَةُ إِلَى صَوَابِهِمْ وَصَمَتُوا.

وَاسْتَطْرَدَ أورليانوس، وَقَالَ:

ـ سَنَذْهَبُ بِهَا إِلَى رُومَا لِتُحَاكَمَ هُنَاكَ.



١٥



حِينَ عَلِمَ التَّدْمُرِيُّونَ أَنَّ أورليانوس قَدْ أَسَرَ مَلِكَتَهُمُ الْعَظِيمَةَ، أَصَابَهُمُ الْحُزْنُ مِنْ أَجْلِهَا، وَالْيَأْسُ مِنَ الانْتِصَارِ عَلَى الرُّومِ، وَحِينَ يَجْتَمِعُ الْيَأْسُ وَالْحُزْنُ مَعَ الْجُوعِ، يَكُفُّ الْعَقْلُ عَنِ التَّفْكِيرِ، وَيُصْبِحُ الْإِنْسَانُ بِلَا إِرَادَةٍ، وَيَصِيرُ مُسْتَعِدًّا لِلاسْتِسْلَامِ.

وَقَادَ الْيَهُودُ الْجَمَاهِيرَ التَّدْمُرِيَّةَ نَحْوَ فِكْرَةِ الاسْتِسْلَامِ وَفَتْحِ الْأَبْوَابِ أَمَامَ الرُّومَانِ، لَكِنَّ قَادَةَ الْجَيْشِ حَارَبُوا هَذِهِ الْفِكْرَةَ، وَقَرَّرُوا الدِّفَاعَ عَنِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمَ تَسْلِيمِهَا مَهْمَا كَلَّفَهُمُ الْأَمْرُ مِنْ تَضْحِيَاتٍ بِأَرْوَاحِهِمْ وَأَرْوَاحِ جُنُودِهِمْ.

وَاخْتَلَفَتِ الْآرَاءُ بَيْنَ الْمَدَنِيِّينَ وَالْعَسْكَرِيِّينَ، فَالْمُؤَنُ فِي الْمَخَازِنِ كَادَتْ تَنْفَدُ، وَالرُّومَانُ فِي الْخَارِجِ قَطَعُوا عَلَيْهِمْ طُرُقَ الْإِمْدَادَاتِ، وَالنَّاسُ جَمِيعًا مُهَدَّدُونَ بِالْجُوعِ حَتَّى الْمَوْتِ إِذَا اسْتَمَرَّ الْقِتَالُ، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الْبُطُونِ الْجَائِعَةِ وَالْمُعَرَّضَةِ لِلْجُوعِ تُطَالِبُ بِالطَّعَامِ، فَاضْطُرَّ الْعَسْكَرِيُّونَ إِلَى أَنْ يُوَافِقُوا عَلَى تَسْلِيمِ الْمَدِينَةِ، عَلَى أَمَلِ أَنْ يُقَاوِمُوا الْمُحْتَلَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَيَطْرُدُوهُ، فَالْمُهِمُّ الْآنَ، هُوَ مَلْءُ الْبُطُونِ الْجَائِعَةِ بِالطَّعَامِ.

أَسْرَعَ الْيَهُودُ قَبْلَ غَيْرِهِمْ بِالصُّعُودِ إِلَى أَعْلَى الْأَسْوَارِ، يَطْلُبُونَ الْأَمَانَ مِنَ الْقَيْصَرِ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ، وَفُتِحَتِ الْأَبْوَابُ، وَدَخَلَ الرُّومَانُ إِلَى الْمَدِينَةِ مُنْتَصِرِينَ.. وَسَقَطَتْ تَدْمُرُ بِسُقُوطِ مَلِيكَتِهَا، وَضَاعَ حُلْمُ زِنُوبْيَا الَّذِي كَادَ يَتَحَقَّقُ، لَوْلَا خِيَانَةُ الْيَهُودِ لِلْوَطَنِ الَّذِي عَاشُوا فِيهِ، وَالْمَلِكَةِ الَّتِي سَمَحَتْ لَهُمْ بِإِقَامَةِ شَعَائِرِ دِينِهِمْ بِحُرِّيَّةٍ.



أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ

س١: مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ زِنُوبْيَا؟ وَمَا اسْمُهَا الْحَقِيقِيُّ؟

س٢: مَا اسْمُ الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْكُمُهَا زِنُوبْيَا؟ وَأَيْنَ كَانَتْ تَقَعُ؟

س٣: مَنِ الْمُحْتَلُّ الَّذِي سَـــيْطَرَ عَلَى أَرْضِ سُورِيَا؟ وَمَاذَا فَعَلَ مَعَهُ أُذَيْنَةُ بْنُ السَّمَيْدَعِ؟

س٤: مَاذَا كَانَتْ عَقِيدَةُ التَّدْمُرِيِّينَ؟ وَلِمَاذَا كَانَتْ لَهُمْ أَسْمَاءٌ رُومَانِيَّةٌ؟

س٥: مَا الْمِهْنَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِأَهْلِ تَدْمُرَ؟ وَلِمَاذَا كَانُوا يَمْتَهِنُونَهَا؟

س٦: مَا وَظِيفَةُ عَمْرِو بْنِ الظَّرِبِ؟ وَمَا عَلَاقَتُهُ بِزِنُوبْيَا؟

س٧: مَا السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ وَرَاءَ اعْتِزَازِ زِنُوبْيَا بِعُرُوبَتِهَا؟

س٨: لِمَاذَا اغْتِيلَ أُذَيْنَةُ بْنُ السَّمَيْدَعِ؟ وَمَنِ الَّذِي اغْتَالَهُ؟

س٩: لِمَاذَا لَمْ يَحْضُرْ أُذَيْنَةُ الابْنُ جِنَازَةَ أَبِيهِ الْمَلِكِ؟

س١٠: مَنِ الَّذِي حَكَمَ تَدْمُرَ بَعْدَ مَقْتَلِ مَلِكِهَا أُذَيْنَةَ بْنِ السَّمَيْدَعِ؟ وَلِمَاذَا؟

س١١: عَلَامَ تَدُلُّ الْمُنَاقَشَةُ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ زِنُوبْيَا وَأَبِيهَا بَعْدَ مَقْتَلِ مَلِكِ تَدْمُرَ؟

س١٢: مَا أَوَّلُ قَرَارٍ اتَّخَذَهُ خَيْرَانُ بَعْدَ تَعْيِينِهِ حَاكِمًا عَلَى تَدْمُرَ؟ وَمَا أَثَرُهُ عَلَى أَخِيهِ؟

س١٣: لِمَاذَا ذَهَبَتْ زِنُوبْيَا إِلَى أُذَيْنَةَ فِي الْبَادِيَةِ؟ وَمَاذَا طَلَبَتْ مِنْهُ؟

س١٤: كَيْفَ صَارَ أُذَيْنَةُ الابْنُ رَئِيسًا لِتَدْمُرَ؟ وَمَا أَوَّلُ قَرَارٍ اتَّخَذَهُ؟ وَلِمَاذَا؟

س١٥: لِمَاذَا وَافَقَتْ زِنُوبْيَا عَلَى الزَّوَاجِ مِنْ أُذَيْنَةَ مَعَ أَنَّهَا فِي عُمْرِ ابْنِهِ؟

س١٦: صِفْ حَفْلَ زَوَاجِ أُذَيْنَةَ وَزِنُوبْيَا. وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟



س١٧: مَنِ الشَّخْصَانِ اللَّذَانِ لَمْ يَفْرَحَا لِزَوَاجِ أُذَيْنَةَ مِنْ زِنُوبْيَا؟ وَلِمَاذَا؟

س١٨: لِمَاذَا لَمْ يُعْلِنْ أُذَيْنَةُ الِابْنُ اسْتِقْلَالَهُ عَنِ الرُّومَانِ فَوْرَ تَوَلِّيهِ حُكْمَ تَدْمُرَ؟

س١٩: كَيْفَ جَاءَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ الَّذِي أَعْلَنَ فِيهِ أُذَيْنَةُ اسْتِقْلَالَ تَدْمُرَ؟

س٢٠: بِمَاذَا رَدَّ الْمَلِكُ الْفَارِسِيُّ سَابُورُ عَلَى رُسُلِ أُذَيْنَةَ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س٢١: كَيْفَ اسْتَقْبَلَ أُذَيْنَةُ رَدَّ الْمَلِكِ الْفَارِسِيِّ سَابُورَ عَلَى رِسَالَتِهِ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س٢٢: أَيْنَ الْتَقَى جَيْشُ أُذَيْنَةَ بِجَيْشِ سَابُورَ؟ وَمَا نَتِيجَةُ الْمَعْرَكَةِ؟

س٢٣: كَيْفَ اسْتَقْبَلَ قَيْصَرُ رُومَا نَبَأَ انْتِصَارِ أُذَيْنَةَ عَلَى الْمَلِكِ الْفَارِسِيِّ سَابُورَ؟

س٢٤: مَتَى وَضَعَتْ زِنُوبْيَا مَوْلُودَهَا؟ وَبِمَاذَا سَمَّاهُ أَبُوهُ؟ وَلِمَاذَا؟

س٢٥: مَا الَّذِي جَعَلَ أُذَيْنَةَ يَفُكُّ حِصَارَهُ عَنِ الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ؟

س٢٦: هَلْ عَادَ أُذَيْنَةُ إِلَى حِصَارِ الْمَدَائِنِ مَرَّةً أُخْرَى؟ وَلِمَاذَا؟

س٢٧: كَيْفَ كَانَ حَالُ النَّاسِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي حَرَّرَهَا أُذَيْنَةُ قَبْلَ التَّحْرِيرِ وَبَعْدَهُ؟

س٢٨: مَا الْحَادِثُ الَّذِي نَبَّهَ الرُّومَانَ إِلَى أَنَّ أُذَيْنَةَ صَارَ خَطَرًا عَلَيْهِمْ؟ وَمَاذَا قَرَّرُوا بَعْدَهُ؟

س٢٩: مَنِ الشَّخْصُ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيَارُ الرُّومَانِ لِقَتْلِ أُذَيْنَةَ؟ وَهَلْ وَافَقَهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ؟

س٣٠: مَا الْحَادِثَةُ الَّتِي أَظْهَرَ فِيهَا مُعَنَّى حِقْدَهُ عَلَى عَمِّهِ وَتَوَعَّدَهُ بِاسْتِرْدَادِ مُلْكِ أَبِيهِ؟

س٣١: مَاذَا فَعَلَ أُذَيْنَةُ مَعَ ابْنِ أَخِيهِ حِينَ هَدَّدَهُ بالقَتْلِ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يَقْتُلْهُ؟

س٣٢: كَيْفَ قُتِلَ أُذَيْنَةُ وَابْنُهُ هِيرُودِيس؟ وَمَنِ الَّذِي قَتَلَهُمَا؟

س٣٣: كَمِ اسْتَمَرَّ مُعَنًّى فِي حُكْمِ تَدْمُرَ بَعْدَ قَتْلِهِ لِعَمِّهِ أُذَيْنَةَ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س٣٤: مَا وَقْعُ مَقْتَلِ أُذَيْنَةَ عَلَى زِنُوبْيَا؟ وَهَلْ وَاصَلَتْ تَحْقِيقَ حُلْمِ زَوْجِهَا؟

س٣٥: كَيْفَ جَاءَتْ زِنُوبْيَا حَاكِمَةً لِتَدْمُرَ؟ وَهَلْ وَافَقَ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ عَلَى ذَلِكَ؟

س٣٦: كَيْفَ صَارَتْ تَدْمُرُ فِي عَهْدِ زِنُوبْيَا؟ وَلِمَاذَا؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س٣٧: أَيْنَ كَانَ يَعِيشُ الْيَهُودُ دَاخِلَ مَمْلَكَةِ تَدْمُرَ؟ وَهَلْ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَلَى نَهْضَتِهَا؟ وَلِمَاذَا؟

س٣٨: لِمَاذَا تَقَرَّبَ سَابُورُ إِلَى زِنُوبْيَا وَطَلَبَ عَقْدَ الْمُعَاهَدَاتِ مَعَهَا؟ وَهَلْ وَافَقَتْ؟ وَلِمَاذَا؟

س٣٩: مَتَى أَعْلَنَتْ زِنُوبْيَا الاسْتِقْلَالَ التَّامَّ عَنِ الرُّومَانِ؟ وَهَلْ وَافَقَهَا عَلَى ذَلِكَ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ؟

س٤٠: لَمْ تَكْتَفِ زِنُوبْيَا بِالِاسْتِقْلَالِ عَنِ الرُّومَانِ، بَلْ طَمَحَتْ إِلَى احْتِلَالِ إِمْبَرَاطُورِيَّتِهِمْ وَالِاسْتِيلاءِ عَلَيْهَا. فَكَيْفَ خَطَّطَتْ لِذَلِكَ؟

س٤١: كَيْفَ خَدَعَ أُورليانوس الْجَيْشَ التَّدْمُرِيَّ؟ وَمَا نَتِيجَةُ هَذِهِ الْخُدْعَةِ عَلَى الْجَيْشِ التَّدْمُرِيِّ؟

س٤٢: كَيْفَ انْتَهَى حُلْمُ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ؟ وَكَيْفَ كَانَتْ نِهَايَةُ زِنُوبْيَا إِمْبَرَاطُورَةِ الشَّرْقِ؟